

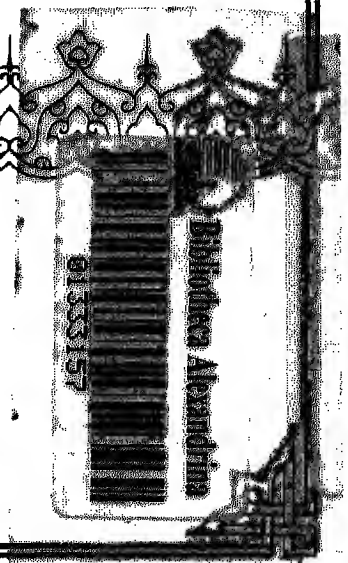
الفوائد

تأليف

الامام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

دار الأمان للنشر

القاهرة



القولاء

تأليف

الامام شمس الدين محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزية

دار البيان للنشر

القاهرة

الطبعة الاولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
القاهرة

جميع الحقوق محفوظة
لدار الريان للتراث



١٧٧ شارع الاهرام - إسبائس - الجيزة

٢٢ شارع الأندلس خلف الميرلاند - مصر الجديدة - القاهرة

معرض رقم ٨ ميدان الأوبرا - القاهرة

١ شارع البورصة من شارع قصر النيل - القاهرة

٤٣ شارع رمسيس - القاهرة

برج رمادا - سيدى بشر - الاسكندرية

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.. وبعد
فإننا عندما حاولنا التقديم لكتاب الفوائد لم نجد أمامنا غير بيتين من
الشعر ذكرهما المؤلف أيضاً في الكتاب:

أتاك حديث لا يمل سماعه شهى الينا نشره ونظامه
إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المعنى ظلامه

وهذا ما يلمسه ويشعر به من يقرأ الكتاب، وخصوصاً ان مؤلفه هو
ابن القيم، حيث يتناول رحمه الله آية أو جزءاً من آية فيفسرها تفسيراً لم
يسبقه أحد إليه، أو يتناول حديثاً أو جزءاً من حديث أو حتى كلمة
فيه، فيخرج في إخراج المعاني القيمة والحكم المفيدة من ذلك.

فشلاً عندما تناول إقرار العبد لله بالعبودية كما جاء في الحديث
«ناصيتي بيدك» قال:

«وقد شهد العبد ان ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده
يصرفهم كيف يشاء، لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة
المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم والمدبر
لهم غيرهم، فن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه
وصفاً لازماً له، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر اليهم، ولم يعلق أمله
ورجاءه بهم فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته، ولهذا قال هود لقومه:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾

رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ .

ومن فوائده أيضاً قوله :

«الجاهل يشكو الله إلى الناس» وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكوا إليه ، فانه لو عرف ربه لما شكاه ولو عرف الناس لما شكوا اليهم . ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال : يا هذا ، والله ما زدت على ان شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ، وفي ذلك قيل : وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم والعارف إنما يشكو إلى الله وحده ، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه ، فهو ناظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَنِفْسِكَ ﴾ (٣)

وقوله : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٤) فالمراتب ثلاث : أخسها أن تشكو الله إلى خلقه ، وأعلىها أن تشكو نفسك إليه وأوسطها أن تشكو خلقه إليه .

ويقول أيضاً :

«معرفة الله سبحانه نوعان : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس : البر والفاجر والمطيع والعاصي ، والثاني معرفة توجب الحياء منه ، والمحبة له ، وتعلق القلب به ، والشوق إلى لقائه ، وخشيته ، والانابة إليه ، والأنس به ، والفرار من الخلق إليه » .

(١) الشورى : الآية ٣٠

(١) سورة هود : الآية ٥٦ .

(٤) آل عمران : الآية ١٦٥ .

(٣) النساء : الآية ٧٩

وتأمل أيضاً قوله :

«ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده وسعادته بيده وشقاوته بيده وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله باذن مشيئته، فلا يتحرك إلا باذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته، ان وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضعية وتفريط وذنب وخطيئة، وان وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وان تخلص عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيراً له. فهو لا غنى عنه طرفة عين بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس، في كل ذرة من ذراته باطناً وظاهراً، فاقتته تامة اليه، ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه يتبغض إليه بمعصيته مع شدة الضرورة اليه من كل وجه، قد صار لذكره نسباً واتخذ وراءه ظهيراً، هذا وإليه مرجعه، وبين يديه موقفه» .

ما شاء الله ما شاء الله، هل رأيت أحلى وأجل من هذا الكلام، بل هل رأيت أسهل وأيسر من هذه الطريقة في توصيل تلك المعاني الدقيقة التي لا يقدر على توصيلها إلا من فتح الله عليه ووفقه وآتاه من لدنه علماً .

وانك أيها القارئ الكريم ستجد تلك طريقة ابن القيم رحمه الله في جميع كتبه وخاصة هذا الكتاب الذي بين يديك، حكم وعظات، وآداب و... فوائد .

وانه لما يسرنا اليوم أن نتشرف بنشر كتاب الفوائد للأمام ابن القيم. ومن توفيق الله لك أيها القارئ الكريم ان تقرأ مثل هذا الكتاب فانه على صغر حجمه جمع فأوعى وكان حقاً فوائد .

الناشر

القاهرة في ١٠/٢/١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الأمام، محيي السنة قاصم البدعة، أبو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية، رحمه الله ورضي عنه:

قاعدة جليلة

شروط الانتفاع بالقرآن

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، والقب سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه^(١)، فانه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٢).

وذلك ان تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.. فقلوه: (ان في ذلك لذكري) اشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: (لمن كان له قلب) فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾^(٣).

(١) الضمير في لفظة «منه» يعود إلى الله عز وجل. وفي «إليه» يعود إلى المخاطب، بفتح الطاء.

(٢) سورة يس: الآية ٦٩ - ٧٠.

(٣) سورة ق: الآية ٣٧.

أى حى القلب . وقوله : (أو ألقى السمع) أى وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثير بالكلام .

وقوله : (وهو شهيد) أى شاهد القلب حاضر غير غائب . قال ابن قتيبة^(١) : استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساه ، وهو اشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله . فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحمل القابل وهو القلب الحى ، ووجد الشرط وهو الاصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر .

القلب الحى :

فان قيل : إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه ، فما وجه دخول اداة «أو» فى قوله : (أو ألقى السمع) ، والموضع موضع واو الجمع لا موضع «أو» التى هى لأحد الشيئين ؟ قيل : هذا سؤال جيد ، والجواب عنه أن يقال : خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو ، فان من الناس من يكون حى القلب واعيه تام الفطرة ، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن ، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة ، وهذا وصف الذين قيل فيهم :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

وقال فى حقهم :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ يَكْشُرُ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ ۚ

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، توفى سنة ٢٧٦ هـ . وستأنى ترجمته .

(٢) سورة سبأ : الآية ٦ .

فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي
اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾ .

فهذا نور الفطرة على نور الوحي . وهذا حال صاحب القلب الحى
الواعى .

قال ابن القيم : وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر
فى كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» .
فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معانى القرآن، فيجدها كأنها قد
كتبت فيه ، فهو يقرؤها عن ظهر قلب . ومن الناس من لا يكون تام
الاستعداد ، واعى القلب ، كامل الحياة ، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين
الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب
القلب الحى الواعى ، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام ،
وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه ، فيعلم حينئذ أنه الحق .

فالأول : حال من رأى بعينه ما دعى اليه وأخبر به .

والثانى : حال من علم صدق الخبر وتيقنه وقال يكفينى خبره ، فهو
فى مقام الإيمان ، والأول فى مقام الاحسان . هذا قد وصل إلى علم
اليقين وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين ، وذلك معه التصديق الجازم
الذى خرج به من الكفر ودخل به فى الإسلام .

فعين اليقين نوعان : نوع فى الدنيا ، ونوع فى الآخرة . فالحاصل فى
الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين . وما أخبرت به الرسل

(١) سورة النور: الآية ٣٥ .

من الغيب يعاين فى الآخرة بالأبصار، وفى الدنيا بالبصائر^(١)، فهو عين يقين فى المرتبتين.

فصل

المبدأ والمعاد وصفات التوحيد جمعت فى سورة (ق)

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفى ويشفى ويفنى عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول، فانها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقى وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء. وتضمنت اثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب. وذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى. والعالمين: الأكبر، وهو عالم الآخرة. والأصغر، وهو عالم الدنيا. وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته واعادته وحاله عند وفاته ويوم معياده، وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال:

﴿ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴾^(٢).

أى هذا الذى أمرت باحضاره قد أحضرته، فيقال عند احضاره:

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾^(٣).

كما يحضر الجانى إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه.

(١) البصائر: جمع بصيرة، والبصيرة: العقل واللفظة.

(٢) سورة ق: الآية ٢٣. عتيد: أى حاضر.

(٣) سورة ق: الآية ٢٤.

المعاد للجسد ذاته :

وتأمل كيف دللت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى ، فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ، ويعذب التى كفرت بعينها ، لأنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذى أخبرت به الرسل ، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنأً غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعم والعذاب . والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى . وهذا فى الحقيقة انكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين ، فانهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام اخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها ، كيف وهم يشهدون النوع الإنسانى يخلق شيئاً بعد شيء ! فكل وقت يخلق الله سبحانه أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التى فنيت ، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً ؟ وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم ، بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا :

﴿ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١).

وقالوا : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ (٢).

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً ، بل يكون ابتداء ، ولم يكن لقوله :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ (٣).

(٢) سورة ق: الآية ٣.

(١) سورة الصافات: الآية ١٦.

(٣) سورة ق: الآية ٤.

كبير معنى . فانه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر، وهو: انه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقاً جديداً، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته، فان شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

شبه المنكرين للمعاد :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص .

الثانى : ان القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : ان ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنسانى شيئاً بعد شيء ، هكذا أبداً ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميت النوع الإنسانى كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك ، فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

براهين المعاد :

أحدهما : تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال فى جواب من قال : ﴿ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ (١) .

وقال : ﴿ وَإِنَّ أَسْأَعَةَ لَأَنِّيَّةٍ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿ (٢) .

(٢) سورة الحجر : ٨٥ - ٨٦ .

(١) سورة يس : الآية ٧٨ - ٧٩ .

وقال : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) .

والثاني : تقرير كمال قدرته ، كقوله :

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما فى قوله : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم) .

الثالث : كمال حكمته ، كقوله :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ أَحَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ لَا تُرْجَعُونَ *

فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ (٧)

وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ وَمَنْهُمْ سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٨)

(١) سورة يس : الآية ٨١ .

(٢) سورة القيامة : الآية ٤ .

(٣) سورة الحج : ٦ .

(٤) سورة الدخان : الآية ٥ .

(٥) سورة ص : الآية ٢٧ .

(٦) سورة القيامة : ٣٦ . سدى : أى مهملا .

(٧) سورة المؤمنون : ١١٥ - ١١٦ .

(٨) سورة الجاثية : الآية ٢١ .

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه منزّه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم :

﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ﴾ (١) .

مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنيانه وارتفاعه واستوائه وحسنه والثمائه ، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض ، وكيف بسطها وهياها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصرها ، تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانياً ، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكير في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض ، وبين ذلك مع اختلاف منابعا وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها . ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تحفى على التأمل :

﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٢) .

(١) سورة ق: الآية ٥ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦ .

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١).

أى مثل هذا الاخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب، خروجكم من الأرض بعد ما غيبت فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة فى القرآن فى كتابنا «المعالم»، وبيننا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك وصدق فيهم وعيده الذى أوعدهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوته من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه فى كتاب، بل أخبر به إخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب. ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت (٢) والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شىء من ذلك أو ان حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت (٣) مباهت جاحد لما شهد به العيان وتناقلته القرون قرناً بعد قرن، فانكاره بمنزلة انكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

معنى العيبى:

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله:

﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ (٤).

يقال لكل من عجز عن شىء: عيبى به، وعيبى فلان بهذا الأمر، قال الشاعر:

(٢) البهت، والبهتان: الكذب المفترى.

(٤) سورة ق: الآية ١٥.

(١) سورة ق: الآية ١١.

(٣) أى كاذب.

عيوا بأمرهم كما عييت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَالِيغٌ يُخَلِّقُكُمْ﴾ (١).

قال ابن عباس (٢): يريد أفعجنا، وكذلك قال مقاتل (٣). قلت: هذا تفسير بلازم اللفظة، وحقيقتها أعم من ذلك، فإن العرب تقول: أعياني أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول: أعياني دواؤك إذا لم تهتد له ولم تقف عليه. ولأزم هذا المعنى العجز عنه. والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعيائها إذا أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة، فهي تدور وتجول حتى ترمى بها، فإذا باضت أعيائها أين تحفظها وتودعها حتى لاتنال، فهي تنقلها من مكان إلى مكان، وتحار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيى بأمره فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه، وليس المراد بالاعياء في هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذى نفاه سبحانه عن نفسه فى آخر السورة بقوله:

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٤)

ثم أخبر سبحانه أنهم:

﴿فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥)،

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٣.

(٢) ابن عباس: هو عبد الله بن عبد المطلب «أبو العباس» ابن عم رسول الله (ص) كان يقال عنه الخير والبحر. دعا له النبي بالحكمة مرتين. ولد سنة ٢ هـ وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ. له فى الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثاً.

(٣) يقصد مقاتل بن سليمان البلخي المفسر.

(٤) سورة ق: الآية ٣٨. واللغوب: التعب والإعياء.

(٥) سورة ق: الآية ١٥.

أى أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان ، فانه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والأرادات والصناعات ... كل ذلك من نقطة ماء . فلو أنصف العبد ربه لأكتفى بفكره فى نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته . ثم أخبر سبحانه عن احاطة علمه به ، حتى علم وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربته إليه بالعلم والاحاطة وان ذلك أدنى اليه من العرق الذى هو داخل بدنه ، فهو أقرب اليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق .

وقال شيخنا : المراد بقول : « نحن » أى ملائكتنا ، كما قال :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ (١)

أى إذا قرأه عليك رسولنا جبريل . قال : ويدل عليه قوله :

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ (٢)

فقيد القرب المذكور بتلقى الملكين ، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقى الملكين ، فلا حجة فى الآية للحلولى ولا معطل .

كتابة الأعمال والقيامتين :

ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله ، ونسبه باحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التى هى أقل وقوعاً وأعظم أثراً من الأقوال . وهى غايات الأقوال ونهايتها . ثم أخبر عن القيامة الصغرى وهى سكرة الموت ، وأنها تجيء بالحق وهو لقاءه سبحانه

(٢) سورة ق : الآية ١٧ .

(١) سورة القيامة : الآية ١٨ .

والقدوم عليه وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذى تعجل لها قبل
القيامة الكبرى. ثم ذكر القيامة الكبرى يقول :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ (١).

ثم أخبر عن أحوال الخلق فى هذا اليوم، وإن كل أحد يأتى الله سبحانه
ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه
وغير شهادة الأرض التى كان عليها، له وعليه، وغير شهادة رسوله
والمؤمنين. فإن الله سبحانه يستشهد على العباد الحفظة والأنبياء والأمكنة
التى عملوا عليها الخير والشر، والجلود التى عصوه بها، ولا يحكم بينهم
بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من أقرارهم وشهادة
البينة لا بمجرد علمه، فكيف ينسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير
بينة ولا إقرار؟ ثم أخبر سبحانه أن الإنسان فى غفلة من هذا الشأن
الذى هو حقيق بالآ لا يغفل عنه والآ يزال على ذكره وباله، وقال :

﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ (٢).

ولم يقل عنه، كما قال :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (٣)،

ولم يقل فى شك فيه، وجاء هذا فى المصدر وإن لم يجيء فى الفعل فلا
يقال غفلت منه ولا شككت منه كان غفلته وشكه ابتداء منه فهو مبدأ
غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال فى غفلة عنه وشك فيه. فانه
جعل ما ينبغى أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة

(١) سورة ق: الآية ٢٠.

(٢) سورة ق: الآية ٢٢. وتام الآية «لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك
فبصرك اليوم حديد».

(٣) سورة هود الآية ١١٠. وسورة فصلت: الآية ٤٥.

والشك . ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ ، وعن العين فتفتح . فنسبة كشف هذا الغطاء عن البعد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه .

القرين وخصومته :

ثم أخبر سبحانه أن قرينه ، وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره : هذا الذى كنت وكلتنى به فى الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد^(١) . وقال ابن قتيبة : المعنى هذا ما كتبه عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندى . والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين ، أى هذا الشخص الذى وكلت به وهذا عمله الذى أحصيته عليه . فحينئذ يقال :

﴿ الْقِيَامُ فِي جَهَنَّمَ ﴾^(٢) ،

وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد ، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وأن كان واحداً . وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

إحداها : أنه كفار لنعم الله وحقوقه ، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته ، كفار برسله وملائكته ، كفار بكتبه ولقائه .

الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً .

الثالثة : أنه مناع للخير ، وهذا يعم منعه للخير الذى هو إحسان إلى

(١) هو مجاهد بن جبر ، المسمى المفسر ، أحد الأعلام الأثبات . (ميزان الاعتدال) .

(٢) سورة ق : الآية ٢٤ .

نفسه من الطاعات والقرب إلى الله والخير الذى هو إحسان إلى الناس ،
فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم
بيده ولسانه .

الخامسة: أنه مريب ، أى صاحب ريب وشك ، ومع هذا فهو آت
لكل ريبة ، يقال : فلان مريب ، إذ كان صاحب ريبة .

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله الهاً آخر يعبد
ويحبه ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له ويوالى فيه
ويعادى فيه فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه ، وأنه
هو الذى أطفاه وأضله . فيقول قرينه : لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه
ولكن كان فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق ، كما قال
إبليس لأهل النار:

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ (١) .

وعلى هذا ، فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله . وقالت
طائفة: بل قرينه ههنا هو الملك فيدعى عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه
وطغى ، وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهل
حتى يتوب ، فيقول الملك : مازدت فى الكتابة على ما عمل ولا أعجلته
عن التوبة :

﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢) .

فيقول الرب تعالى : ﴿ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ ﴾ (٣) .

(٢) سورة ق: الآية ٢٧ .

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢ .

(٣) سورة ق: الآية ٢٨ .

وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه فى سورتي الصافات والأعراف ، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه فى سورة الزمر ، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها فى سورة الشعراء وسورة (ص) .
ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه ، فقليل : المراد بذلك قوله :

﴿ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)

ووعده لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا يخلف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدى خلف لأهل طاعتى ولا أهل معصيتى . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين فى الآية . وفيها قول آخر : أن المعنى ما يغير القول عندى بالكذب والتلبيس كما يغير عند الملوك والحكام . فيكون المراد بالقول قول المختصمين ، وهو اختيار الفراء (٢) وابن قتيبة (٣) . قال الفراء : المعنى ما يكذب عندى لعلمى بالغيب . وقال ابن قتيبة : ما يحرف القول عندى ولا يزداد فيه ولا ينقص منه . قال : لأنه قال القول عندى ولم يقل قولى ، وهذا كما يقال لا يكذب عندى . فعلى القول الأول يكون قوله :

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤)

من تمام قوله : (ما يبدل القول لدى) فى المعنى ، أى ما قلته ووعدت به

(١) سورة هود : الآية ١١٩ .

(٢) الفراء : هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمى . إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب . ولد بالكوفة سنة ٤٤ هـ ، وانتقل إلى بغداد فكان أكثر مقامه فيها . وتوفى فى طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ .

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، أبو محمد ، ولد ببغداد سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م ثم سكن الكوفة . وكان من أئمة الأدب المشهورين . توفى سنة (٢٧٦ هـ — ٨٨٩ م) فى بغداد ، وترك مؤلفات كثيرة ، منها : «تأويل مختلف الحديث» و«أدب الكاتب» و«غريب القرآن» .

(٤) سورة ق : الآية ٢٩ .

لا بد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور . وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين :
أحدهما : أن كمال علمه وإطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه .

والثاني : أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده .

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقى فيها :

﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (١)

واخطأ من قال إن ذلك للنفي ، أى ليس من مزيد . والحديث الصحيح يرد هذا التأويل .

صفات أهل الجنة :

ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

أحداها : أن يكون أواباً ، أى رجاءاً إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة عنه إلى ذكره . قال عبيد بن عمير (٢) : الأواب الذى يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها . وقال سعيد بن المسيب (٣) : هو الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

الثانية : أن يكون حفيظاً ، قال ابن عباس : لما أئتمنه الله عليه

(١) سورة ق : الآية ٣٠ .

(٢) يبدو أنه يقصد عبيداً بن عمر بن قتادة بن سعيد الليثي ، أبا عاصم . من كبار التابعين . وقد وثقه ابن معين وابن حبان وقال : مات سنة ٦٨ هـ . وقال العجلي : مكى تابعى ثقه ، كان ابن عمر يجلس إليه ويقول : لله در ابن قتادة ، ماذا يأتي به ! . (تهذيب التهذيب) .
(٣) سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب «أبو محمد» الخزومي ، سيد فقهاء التابعين ، ولد سنة ١٣ هـ ، وتوفى سنة ٩٤ هـ .

وافترضه . وقال قتادة (١) : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته . ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب فى رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته . والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ فى الإمساك عن معاصيه ونواهيه . فالحفيظ : الممسك نفسه عما حرم عليه ، والأواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ الْغَيْبِ ﴾ (٢)

يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه وإطلاعه على تفاصيل أحوال العبد . ويتضمن الإقرار بكتبته ورسله وأمره ونهيه . ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه ، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله : (وجاء بقلب منيب) . قال ابن عباس : راجع عن معاصى الله ، مقبل على طاعة الله . وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبة والاقبال عليه . ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله :

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٣)

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم وأنهم كانوا أشد منهم بطشاً ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم ، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا فى البلاد ، وهل يجدون محيصاً ومنجى من عذاب الله ؟

(١) هو قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز ، مفسر حافظ ، ضرير ، قال فيه الإمام أحمد بن حنبل : « أحفظ أهل البصرة » ، وكان عالماً فى العربية ومفردات اللغة وأيام العرب . ولد سنة ٦١ هـ وتوفى سنة ١١٨ هـ .

(٢) سورة ق : الآية ٣٣ . وتامها : « وجاء بقلب منيب » ..

(٣) سورة ق : الآية ٣٤ - ٣٥ .

قال قتادة: حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركاً. وقال الزجاج (١): طوفوا وفتشوا فلم يروا محيصاً من الموت. وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر:

﴿لَذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢).

ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا اعياء، تكذيب لأعدائه من اليهود، حيث قالوا: انه استراح في اليوم السابع، ثم أمر نبيه بالتأسي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما انه سبحانه صبر على قول اليهود أنه استراح. ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه. ثم أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود. فقل هو الوتر، وقيل الركعتان بعد المغرب. والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر وعلى وأبي هريرة والحسن بن علي واحدي الروایتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.

ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر. وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد:

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ (٣).

(١) الزجاج: هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو اسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد (٢٤١ - ٣١١ هـ). كان في فتوته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرد، ثم عمل مؤدباً للقاسم ابن وزير المعتضد العباسي «عبد الله بن سليمان» ثم كاتباً للقاسم عندما أصبح وزيراً. وله كتب عديدة.

(٢) سورة ق: الآية ٣٧. وأول الآية: «إن في ذلك لذكرى لمن...».

(٣) سورة ق: الآية ٤٢.

بالبعث ولقاء الله يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات ،
فيخرجون سراعاً من غير مهلة ولا ببطء ذلك حشر يسير عليه سبحانه .
ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه ، وذلك يتضمن مجازاته لهم
بقولهم إذ لم يخف عليه ، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء .
ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على
الإسلام ويكرههم عليه ، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده ، فهو
الذى ينتفع بالتذكير . وأما من لا يؤمن ببقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو
ثوابه ، فلا ينتفع بالتذكير .

فائدة

مغفرة أهل بدر

قول النبی صلی الله علیه وسلم لعمر : «وما يدريك أن الله اطلع
على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (١) أشكل على
كثير من الناس معناه ، فان ظاهره إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما
شاءوا منها ، وذلك ممتنع . فقالت طائفة منهم ابن الجوزي (٢) : ليس

(١) فى الصحيحين «أن حاطب بن أبى بلتعة كتب إلى ناس من المشركين من أهل مكة
بخبيرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما علم النبي بذلك أرسل على بن أبى
طالب ، والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود خلف حامله الكتاب ، فأدركوها فى روضة
«خاخ» - وهى موضع بين المدينة ومكة وهى من حى المدينة - واستردوا الكتاب منها . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله ، إني كنت امرأة ملصقة
فى قريش ولم أكن من أنفسها . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم
واموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي .
وما فعلت ذلك كفوراً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد
صدقكم فقال عمر : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال : إنه قد شهد بدرأ ،
وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم» .

(٢) ابن الجوزي : هو عبد الرحمن بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج ، علامة
عصره فى التاريخ والحديث . ولد سنة (٥٠٨ = ١١١٤ م) فى بغداد وفيها توفى سنة (٥٩٧ هـ =
١٢٠١ م) ، وترك نحو ثلاثمائة مصنف .

المراد من قوله: «اعملوا» الاستقبال، وإنما هو للماضى، وتقديره: أى عمل كان لكم فقد غفرته. قال: ويدل على ذلك شيثان:

أحدهما: أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله: فسأغفر لكم.

والثانى: أنه كان يكون اطلاقاً فى الذنوب ولا وجه لذلك. وحقيقة هذا الجواب أنى غفرت لكم بهذه الغزوة ماسلف من ذنوبكم، لكنه ضعيف من وجهين:

أحدهما: ان لفظ «اعملوا» يأباه، فانه للاستقبال دون الماضى. وقوله: «قد غفرت لكم» لا يوجب أن يكون اعملوا مثله، فان قوله: «قد غفرت» تحقيق لوقوع المغفرة فى المستقبل كقوله: (أتى أمر الله) و(جاء ربك) ونظائره.

الثانى: أن نفس الحديث يرد، فإن سببه قصة خاطب وتجسسه على النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها^(١)، وهو سبب الحديث، فهو مراد منه قطعاً. فالذى نظن فى ذلك، والله أعلم، أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام وأنهم قد يقارفون^(٢) بعض ما يقارقه غيرهم من الذنوب، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وجسناات تمحو أثر ذلك. ويكون تخصيصهم

(١) هذه القصة حصلت بعد بدر بست سنين، وذلك يدل على أن المراد ماسيأتى، ولو كان للماضى لما حسن الاستدلال به فى قصة خاطب، لأنه صلى الله عليه وسلم خاطب به عمر منكرأ عليه ما قال فى أمر خاطب. وقد أجاب بعضهم بجواب آخر: حاصلة أن صيغة الأمر فى قوله «اعملوا» للتشريف والتكريم، فالمراد عدم المؤاخذه بما يصدر منهم بعد ذلك، وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التى اقتضت محو ذنوبهم السالفة، وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت. قال الحافظ فى الفتح: وافقوا أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها. والله أعلم.

(٢) يقارفون: أى يرتكبون.

بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم ، وأنهم مغفور لهم . ولا يمنع ذلك كون المغفرة حلت بأسباب تقوم بهم ، كما لا يقتضى ذلك أن يطلبوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة . فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأمر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد ، وهذا محال .

ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب ، فضمنان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة ، ونظير هذا قوله فى الحديث الآخر: «أذنبت ذنباً فقال: أى رب، أذنبت ذنباً فاغفره لى، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً آخر فقال: رب أصبت ذنباً فاغفره لى، فقال الله: علم عبدى ان له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء» (١). فليس فى هذا اطلاق وإذن منه سبحانه له فى المحرمات والجرائم، وإنما يدل على أنه يغفر له مادام كذلك إذا أذنب تاب .

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصبر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب، حكم يعم كل من كانت حاله حاله، لكن ذلك العبد منقطع له بذلك كما قطع به لأهل بدر. وكذلك كل من بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة اطلاق الذنوب والمعاصى له ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وخوفاً بعد البشارة منهم قبلها، كالعشرة المشهود لهم بالجنة. وقد كان الصديق شديد الحذر والخافة، وكذلك عمر. فانهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الاطلاق، الإذن فيما شاءوا من الأعمال .

(١) رواه البخارى وابن حنبل ومسلم بألفاظ مختلفة . (راجع مختصر صحيح مسلم - تحقيق الألبانى - باب: فيمن أذنب ثم استغفر ربه) .

فائدة جلية

تفسير آية (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً)

قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١).

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقاداً للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها. وأخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وفرشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً. وأخبر أنه دحاها وطحها وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها. ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها. ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان. ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتوارى منه كل قبيح وتخرج له كل مريح. ومن بركتها أنها تسرّ قبائح العبد وفضلات بدنه وتوارى وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه، فهي أحمل شيء للأذى وأعوذه بالنفع، فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذى وأقرب إلى الخير.

والمقصود: أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول كيفما يقاد ينقاد. وحسن التعبير بمناكبها غن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً، فالماشى عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه. قالوا: وذلك تنبيه على أن المشى فى سهولها أيسر. وقالت طائفة: بل المناكب

(١) سورة الملك: الآية ١٠.

الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه. والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعلى. وهذا الوجه الذي يمشى عليه الحيوان هو الأعلى من الأرض دون الوجه المقابل له، فان سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول.

ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها، فذلها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها، وأودعها رزقهم فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن. ثم نبه بقوله: (وإليه النشور) على أننا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل فلا يحسن أن نتخذة وطناً ومستقراً، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لامستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووجدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه والحث على السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه والإعلام بأنه سبحانه يطوى هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيى أهلها بعد ما أماتهم وإليه النشور.

فائدة

الفائدة وما تضمنته

للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية. وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والارادية. واستكمال القوة العلمية إنما

يكون بمعرفة فاطره وبارثه ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتا ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. فهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها. واستكمال القوة العلمية الارادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه، وتقصيره هو فى أداء حقه. فهو مستحى من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك. وأنه لا سبيل له الى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته. فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذى هدى إليه أوليائه وخاصته؛ وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد فى قوته العلمية فيقع فى الضلال، وإما فى قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعاده لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمها أكمل انتظام. فإن قوله: (الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين) يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله. والأسماء المذكورة فى هذه السورة هى أصول الأسماء الحسنى، وهى اسم الله والرب والرحمن. فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الاحسان والجود والبر. ومعانى أسمائه تدور على هذا. وقوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانه على عبادته. وقوله: (اهدنا الصراط المستقيم) يتضمن بيان ان العبد لا سبيل له إلى سعاده إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة. وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته. والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات الهيته، فهو الإله الحق، وإن جحدته الجاحدون وعدل به المشركون. فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجاتهم عن عوام المتعبدين. والله المستعان.

فائدة

طريقان لمعرفة الله

الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكير في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ (١) إلى آخرها. وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢). وهو كثير في القرآن.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٠.

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

- والثانى: كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ (١).
 وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ ﴾ (٢).
 وقوله: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ (٣).
 وهو كثير أيضاً.

فأما المفعولات فانها دالة على الأفعال ، والأفعال دالة على الصفات. فان المفعول يدل على فاعل فعله ، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختيارى من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا ارادة. ثم ما فى المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على ارادة الفاعل ، وان فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى. وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته. وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه. وما فيها من الاكرام والتقريب والعناية دال على محبته. وما فيها من الالهانة والابعاد والخذلان دال على بغضه ومقته. وما فيها من ابتداء الشئ فى غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد. وما فيها من أحوال النباتات والحيوان وتصرف المياه دليل على امكان المعاد. وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات. وما فيها من الكمالات التى لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطى تلك الكمالات أحق بها ، ففعلولته من أدل شئ على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه ، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات ، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

(١) سورة النساء: الآية ٨٢. (٢) سورة المؤمنون: الآية ٦٨.

(٣) سورة ص: الآية ٢٩.

قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١)

أى أن القرآن حق فأخبر أنه لا بد أن يريهم من آياتهم المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق . ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله . فآياته شاهدة بصدقه ، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته . فهو الشاهد والمشهد له ، وهو الدليل والمدلول عليه . فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين : كيف أطلب الدليل على من هو دليل لى على كل شيء ؟ فأى دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه . ولهذا قال الرسل لقومهم :

﴿ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ (٢)

فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل . فالأشياء عرفت به فى الحقيقة وان كان عرف بها فى النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه .

فائدة

حديث يزيل الهم والغم

فى المسند وصحيح أبى حاتم من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال اللهم أنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى ، إلا اذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً . قالوا : يا رسول الله أفلا نتعلمهن ؟ قال : بلى ، ينبغى لمن جمعهن أن

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

يتعلمهن». فتضمن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية: منها أن الداعى به صدر سؤاله بقوله انى عبدك ابن عبدك ابن أمتك، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفى ذلك تملق له واستخذاء (١) بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآبؤه ممالكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلّى عنه هلك ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه بل يضيع أعظم ضيعة. فتحت هذا الاعتراف: انى لاغنى بى عنك طرفة عين وليس لى من أعوذ به وألوذ به غير سيدى الذى أنا عبده، وفى ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبر مأمور منهى إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه. فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار. وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه فى قوله:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾ (٢).

وقوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (٣)، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فاضافتهم اليه كاضافة سائر البيوت إلى ملكه، واضافة أولئك كاضافة البيت الحرام اليه، واضافة ناقته اليه وداره التى هى الجنة اليه، واضافة عبودية رسوله اليه بقوله:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ (٤)،

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ (٥)،

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ (٦).

(٢) سورة الحجر: الآية ٤٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(٦) سورة الجن: الآية ١٩.

(١) أى انكسار.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٥) سورة الإسراء: الآية ١.

العبودية :

وفى التحقيق بمعنى قوله : (انى عبدك) التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتنثال أمر سيده واجتناب نهيه ودوام الافتقار اليه واللجأ اليه والاستعانة به والتوكل عليه ، وعياذ العبد به ولياذه به وإلا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجاء وفيه أيضاً انى عبد من جميع الوجوه : صغيراً وكبيراً ، حياً وميتاً ، مطيعاً وعاصياً ، معافى ومبتلى بالروح والقلب واللسان والجوارح . وفيه أيضاً أن مالى ونفسى ملك لك فإن العبد وما يملك لسيده ، وفيه أيضاً انك أنت الذى مننت على بكل ماأنا فيه من نعمة فذلك كله من انعامك على عبدك . وفيه أيضاً انى لا أنصرف فيما خولتنى من مالى ونفسى إلا بأمرك ، كلما لا يتصرف العبد إلا بأذن سيده ، وانى لا أملك لنفسى ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فان صح له شهود ذلك فقد قال انى عبدك حقيقة . ثم قال : « ناصيتى بيدك » ، أى أنت المتصرف فى ، تصرفنى كيف تشاء ، لست أنا المتصرف فى نفسى . وكيف يكون له فى نفسه تصرف من نفسه بيد ربه وسيده وناصيته بيده وقلبه بيه أصبعين من أصابعه ، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه ، ليس إلى العبد منه شىء ، بل هو فى قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره بل الأمر فوق ذلك .

ومتى شهد العبد ان ناصيته ونواصى العباد كلها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المالكين بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين ، المتصرف فيهم سواهم والمدبر لهم غيرهم ، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفاً لازماً له ، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر اليهم ولم يعلق أمله ورجاءه بهم فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته . ولهذا قال هود لقومه :

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

وقوله: «ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك» تضمن هذا الكلام أمرين:
أحدهما: مضاء حكمه فى عبده.

والثانى: يتضمن حمده وعدله وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود: (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها)، ثم قال: (إن ربي على صراط مستقيم) أى مع كونه مالكا قاهرا متصرفا فى عبادته، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم. وهو العدل الذى يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه. فخبيره كله صدق وقضاؤه كله عدل وأمره كله مصلحة، والذى نهى عنه كله مفسدة وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله، ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

الحكم والقضاء:

وفرق بين الحكم والقضاء وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء، فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الدينى الشرعى وحكمه الكونى القدرى. والنوعان نافذان فى العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكيم قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكونى لا يمكنه مخالفته، وأما الدينى الشرعى فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الاتمام والاكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه قال: «عدل فى قضاؤك» أى الحكم الذى أكملته وأتممته

(١) سورة هود: الآية ٥٦.

ونفذته فى عبدك عدل منك فيه . وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه ، فان كان حكماً دينياً فهو ماض فى العبد ، وان كان كونياً فان نفذ سبحانه مضى فيه وإن لم ينفذه اندفع عنه ، فهو سبحانه يقضى (١) ما يقضى به . وغيره قد يقضى بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه . وهو سبحانه يقضى ويمضى فله القضاء والامضاء .

وقوله : « عدل فى قضاؤك » يتضمن جميع أقضيته فى عبده من كل الوجوه ، من صحة وسقم وغنى وفقر ولذة وألم وحياة وموت وعقوبة وتجاوز وغير ذلك . قال تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (٢) ،
وقال : ﴿ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٣)
فكل ما يقضى على العبد فهو عدل فيه .

أقوال الطوائف فى القدر والعدل :

فإن قيل : فالمعصية عندكم بقضائه وقدره ! فما وجه العدل فى قضائها ؟ فان العدل فى العقوبة عليها غير ظاهر . قيل : هذا سؤال له شأن ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور والظلم ممتنع لذاته . قالوا : لأن الظلم هو التصرف فى ملك الغير والله له كل شىء . فلا يكون تصرفه فى خلقه إلا عدلاً .

وقالت طائفة : بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره ، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره ، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم اما فى الدنيا واما فى

(١) لعل الأصوب : يمضى . (٢) سورة الشورى : الآية ٣٠ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٤٨ .

الآخرة. وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا ان من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر. كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا انهم لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بانكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيباً بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مشبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية وألغى على من شاء فذلك محض العدل فيه لأنه وضع الاضلال والخذلان في موضعه اللائق به، كيف ومن أسمائه الحسنى العدل الذى كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح اللعل ويمكن من أسباب الهداية والطاعة بالاسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله. وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه وتناسى ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثانى: الا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليها ولا يثنى عليه بها ولا يحبه فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله.

قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ (٢).

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلاً فيه وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام فى هذا فى كتابنا الكبير فى القضاء والقدر.

والمقصود أن قوله صلى الله عليه وسلم: «ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك» رد على الطائفتين: القدريّة (٣) الذين ينكرون عموم أفضية الله فى عبده، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء إلى الأمر والنهى. وعلى الجبرية (٤) الذين يقولون: كل مقدور عدل، فلا يبقى لقوله: «عدل فى قضاؤك» فائدة، فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله والظلم هو المحال لذاته، فكأنه قال: ماض ونافذ فى قضاؤك. وهذا هو الأول بعينه.

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٣.

(٣) ظهرت الفكرة القدريّة فى عهد المتأخرين من الصحابة والتابعين، ومؤداها أن الإنسان حر الإرادة قادر على أعماله. ومن الذين قالوا بذلك معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم، وقد مهد هؤلاء للمعتزلة الذين يسمون أحياناً بالقدريّة. وقد تبرا منهم متأخرو الصحابة كعبد الله بن عمر وابن عباس. (الفرق بين الفرق).

(٤) الجبرية: طائفة ظهرت فى القرن الأول الهجرى، وتسمى أيضاً «الجهمية» نسبة إلى رئيسها جهم بن صفوان الذى قال بأن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة. فلا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. والجبرية ضد القدريّة. (الفرق بين الفرق).

التوسل بأسمائه تعالى :

وقوله : « أسألك بكل اسم » إلى آخره ، توسل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم . وهذه أحب الوسائل إليه فانها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه . وقوله : « أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري » الربيع : المطر الذي يحيى الأرض . شبه القرآن به حياة القلوب به . وكذلك شبه الله بالمطر ، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة ، والنور الذي تحصل به الاضاءة والاشراق ، كما جمع بينها سبحانه في قوله :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ (١)
وفي قوله : ﴿ مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي آسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (٢) .

ثم قال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (٣) .

وفي قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ (٤) . الآيات

ثم قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ (٥) . الآية .

فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن وان ينور به صدره فتجتمع له الحياة والنور . قال تعالى :

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ ﴾

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧ .

(٤) سورة النور: الآية ٣٥ .

(١) سورة الرعد: الآية ١٧ .

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩ .

(٥) سورة النور: الآية ٤٣ .

مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴿١﴾

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسرى منه إلى القلب لأنه قد حصل لما هو أوسع منه . ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسرى الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذى هو مادتها . ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فانها أحرى الا تعود ، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فانها تعود بذهاب ذلك . والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن ، وإن كان من مستقبل أحدث الهم ، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم ، والله أعلم .

فائدة

العرش والقلب

أنزه الموجودات وأظهرها وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتاً وقدرأ وأوسعها عرش الرحمن جل جلاله . ولذلك صلح لاستوائه عليه . وكل ما كان أقرب إلى العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه . ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها لقربها من العرش إذ هو سقفها ، وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقتها وأبعدها من كل خير .

وخلق الله القلوب وجعلها محلاً لمعرفة ومحبة وإرادته ، فهي عرش المثل الأعلى الذى هو معرفته ومحبة وإرادته . قال تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّىِّ وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ

(١) سورة الأنعام : ١٢٢ .

الْحَكِيمُ ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿٣﴾. فهذا من المثل الأعلى وهو:

﴿السُّوَّى وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

وقال تعالى: (وهو الذي يبدأ) مستوعب على قلب المؤمن فهو عرشه وإن لم يكن أظهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه معرفة ومحبة وإرادة، فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلق بها، فضياق وأظلم وبعد من كماله وفلاحه حتى تعود القلوب على قلبين: قلب هو عرش الرحمن ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير. وقلب هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم، فهو حزين على ماضى، مهموم بما يستقبل، مغموم فى الحال.

وقد روى الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجاني عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله». والنور الذى يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبه فحظه الظلمة والضيق.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٤) سورة النحل: الآية ٦٠.

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

فائدة

محتوى خطاب القرآن

تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله وله الحمد كله. أزمة الأمور كلها بيده ومصدرها منه ومردّها إليه، مستوياً على سرير ملكه لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبّيده، مطلعاً على أسرارهم وعلاّنيّتهم، منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى ويعطى ويمنع ويثيب ويعاقب ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق ويميت ويحيى ويقدر ويقضى ويدبر. الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك من ذرة إلا بأذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه ويمجد نفسه ويحمد نفسه وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائهم وصفاتهم ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه. فيذكرهم بنعمه عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه وما أعلم لهم من العقوبة إن عصوه. ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسوء أعمالهم وقبيح صفاتهم. ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل. ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه وانهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغنى بنفسه عن كل ماسواه، وكل ماسواه فقير إليه

بنفسه وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضلِهِ ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدلِهِ وحكمته. ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه أطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثرتهم وغافر زلاتهم ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجى لهم من كل كرب، والموفى لهم بوعده، وأنه وليهم الذى لا ولى لهم سواه فهو مولا لهم الحق ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير. فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جيلاً هذا شأنه فكيف لا تحبه وتنافس فى القرب منه وتنفق أنفاسها فى التودد إليه ويكون أحب إليها من كل ما سواه ورضاه أثر عندها من رضا كل ما سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها دواؤها بحيث ان فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟.

فائدة

الحل لا يقبل ضدين

قبول الحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده. وهذا كما أنه فى الذوات والأعيان فكذلك هو فى الاعتقادات والارادات. فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبة موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل. وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها. فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وارادته والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبة الله وارادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره. ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته (١)

(١) لعل الأصوب: ولا حركة لسان بذكره وللجوارح بخدمته.

إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته . فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع لم يبق فيه موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه . وسر ذلك أن اصغاء القلب كاصغاء الأذن ، فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه اصغاء ولا فهم لحديثه ، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته . فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان . ولهذا في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً حتى يريه (١) خير له من أن يمتلىء شعراً» فبين أن الجوف يمتلىء بالشعر فكذلك يمتلىء بالشبه والشكوك والخيالات والتقديرات التي لا وجود لها ، والعلوم التي لا تنفع ، والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها . وإذا امتلأ القلب بذلك جاءت حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعاده فلم تجد فيه فراغاً لها ولا قبولاً فتعدته وجاوزته إلى محل سواه ، كما إذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه فانه لا يقبلها ولا تلج فيه لكن تمر مجتازة لا مستوطنة ، ولذلك قيل :

نزه فؤادك من سوانا تلقنا فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكز وصالنا من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

فائدة

تفسير سورة التكاثر

قوله تعالى : ﴿ اَلْهٰكُمُ التَّكٰثُرُ ۝ (٢) ﴾ إلى آخرها .

أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد ، وكفى بها موعظة لمن عقلها . فقوله تعالى : (أهاكم) أى شغلكم على وجه لا تعذرون فيه .

(١) جاء في القاموس : ورى القبح جوفه : أفسده .

(٢) سورة التكاثر: الآية ١ .

فان الالهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه . فان كان بقصد فهو محل التكليف ، وان كان بغير قصد كقوله صلى الله عليه وسلم في الحميصة : « انها ألهتنى آنفاً عن صلاتي » (١) كان صاحبه معذوراً وهو نوع من النسيان . وفي الحديث « قلها صلى الله عليه وسلم عن الصبي » أى ذهل عنه . ويقال : لها بالشيء ، أى اشتغل به . ولها عنه : إذا انصرف عنه . واللهو للقلب ، واللعب للجوارح . ولهذا يجمع بينهما . ولهذا كان قوله : (أهاكم التكاثر) أبلغ فى الذم من شغلكم . فان العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به . فاللهو هو ذهول وإعراض . والتكاثر تفاعل من الكثرة أى مكاثرة بعضكم لبعض . وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لاطلاقه وعمومه وأن كل مايكاثر به العبد غيره ، سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده ، فهو داخل فى هذا التكاثر . فالتكاثر فى كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم ، ولا سيما إذا لم يحتج إليه . والتكاثر فى الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها . والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره ، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله ، فالتكاثر فيه منافسة فى الخيرات ومسابقة اليها . وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه « انتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : أهاكم التكاثر ، قال : يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيته أو لبست فأبليت » .

تنبيه

حكم بالغات

- * من لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذنه .
 - * للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس ، فمن هتك الستر الذى بينه وبين الله هتك الله الستر الذى بينه وبين الناس .
- (١) رواه البخارى فى كتاب الصلاة ، ومسلم وأبو داود فى اللباس .

* للعبد رب هو ملاقيه وبيت هو ساكنه ، فينبغى له أن يسترضى ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه .

* اضاءة الوقت أشد من الموت ، لأن اضاءة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة ، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها .

* الدنيا من أولها إلى آخرها لاتساوى غم ساعة ، فكيف بغم العمر؟ .

* محبوب اليوم يعقب المكروه غدا ، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدا .

* أعظم الربح فى الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها فى معادها .

* كيف يكون عاقلا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة ؟ .

* يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين : بكاءه على نفسه ، وثناؤه على ربه .

* المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه ، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه .

* لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب ، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين .

دافع الخطرة (١) فإن لم تفعل صارت فكرة . فدافع الفكرة ، فإن لم تفعل صارت شهوة . فحاربها ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة ، فإن لم تدافعها صارت فعلا ، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها .

* التقوى ثلاث مراتب : إحداها : حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات . الثانية حميتها عن المكروهات . الثالثة : الحمية عن الفضول

(١) أى ما يخطر فى البال .

وما لا يعنى . فالأولى تعطى العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ،
والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته .

غموض الحق حين تذب عنه يقلل ناصر الخصم المحق
تضل عن الدقيق فهم قوم فتقضى للمجل على المدق (١)

* * *

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه لا بى ولا بشفيع لى من الناس
إذا أيسر وكاد اليأس يقطعنى جاء الرجا مسرعا من جانب اليأس
* من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتية من المكارة ، ومن خلقه للنار
لم تزل هداياها تأتية من الشهوات .

* لما طلب آدم الخلود فى الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج
منها ، ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا
لبث فيه بضع سنين .

مشاهد المقدور المكروه

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد : أحدها :
مشهد التوحيد ، وأن الله هو الذى قدره وشاءه وخلقه ، وما شاء الله كان
وما لم يشأ لم يكن . الثانى : مشهد العدل ، وأنه ماض فيه حكمه عدل
فيه قضاؤه . الثالث : مشهد الرحمة ، وأن رحمته فى هذا المقدور غالبية
لغضبه وانتقامه ورحمته حشوه . الرابع : مشهد الحكمة ، وأن حكمته سبحانه
اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاء عبثا . الخامس : مشهد الحمد ، وأن
له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه . السادس : مشهد
العبودية ، وأنه عبد محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده وأفضيته

(١) جل : عظم . دق : صغر .

بحكم كونه ملكه وعبد، فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية، فهو محل لجرىان هذه الأحكام عليه .

نتائج المعصية :

قلة التوفيق وفساد الرأى ، وخفاء الخلق وفساد القلب ، وخمول الذكر ، وإضاعة الوقت ، ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه ، ومنع اجابة الدعاء ، وقسوة القلب ، ومحى البركة فى الرزق والعمر ، وحرمان العلم ولباس الذل وإهانة العدو وضيق الصدر ، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت ، وطول الهم والغم ، وضنك المعيشة وكسف البال .. تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والاحراق عن النار . وأضداد هذه تتولد عن الطاعة .

فصل

إنصاف الله

طوبى لمن انصف ربه فأقر له بالجهل فى علمه والآفات فى عمله والعيوب فى نفسه والتفريط فى حقه والظلم فى معاملته . فإن آخذه بذنوبه رأى عدله ، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله ، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه ، فإن قبلها فنة وصدقة ثانية ، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به . وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه وخذلانه له وإمساك عصمته عنه وذلك من عدله فيه فيرى فى ذلك فقره إلى ربه وظلمه فى نفسه ، فإن غفرها له فبمحض احسانه وجوده وكرمه . ونكتة المسألة وسرها أنه لا يرى ربه إلا محسنا ولا يرى نفسه إلا مسيئاً أو مفترطاً أو مقصراً فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه واحسانه إليه وكل ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه .

المحبيب إذا خربت منازل أحبائهم قالوا سقيا لسكانها . وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذكر حينئذ حسن طاعته له فى الدنيا وتودده إليه وتجدد رحمته وسقياه لمن كان ساكنا فى تلك الأجسام البالية .

فائدة

الغيرة نوعان

الغيرة غيرتان : غيرة على الشيء وغيرة من الشيء . فالغيرة على المحبوب حرصك عليه ، والغيرة من المكروه أن يزاحمك عليه . فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المزاحم ، وهذه تحمد حيث يكون المحبوب تقبح المشاركة فى حبه كالمخلوق ، وأما من تحسن المشاركة فى حبه كالرسول والعالم بل الحبيب القريب سبحانه فلا يتصور غيرة المزاحمة عليه بل هو حسد . والغيرة المحمودة فى حقه أن يغار المحب على محبته له أن يصرفها إلى غيره أو يغار عليها أن يطلع عليها الغير فيفسدها عليه أو يغار على أعماله أن يكون فيها شيء لغير محبوبه أو يغار عليها أن يشوبها مايكره محبوبه من رياء أو أعجاب أو محبة لاشراف غيره عليها أو غيبتها عن شهود منته عليه فيها .

وبالجملة ، فغيرته تقتضى أن تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله . وكذلك يغار على أوقاته أن يذهب منها وقت فى غير رضا محبوبه ، فهذه الغيرة من جهة العبد وهى غيرة من المزاحم له المعوق القاطع له عن مرضاة محبوبه . وأما غيرة محبوبه عليه فهى كراهية أن ينصرف قلبه عن محبته إلى محبة غيره ، بحيث يشاركه فى حبه ، ولهذا كانت غيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه ، ولأجل غيرته سبحانه حرم الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، لأن الخلق عبيده واماؤه فهو يغار على امائه كما يغار السيد

على جواريه ، والله المثل الأعلى . ويغار على عبيده أن تكون محبتهم
لغيره ، بحيث تحملهم تلك المحبة على عشق الصور ونيل الفاحشة منها .
من عظم وقار الله في قلبه أن يعصيه وقره الله في قلوب الخلق أن
يذلوه .

إذا علقت شروش (١) المعرفة في أرض القلب نبتت فيه شجرة
المحبة ، فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة ، فلا تزال الشجرة تؤتي أكلها
كل حين باذن ربها .

أول منازل القوم : اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا .
وأوسطها : هو الذي يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى
النور . وآخرها : تحيتهم يوم يلقونه سلام .

أرض الفطرة رحبة قابلة لما يغرس فيها ، فإن غرست شجرة الإيمان
والتقوى أورثت حلاوة الأبد ، وإن غرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر
مر .

ارجع إلى الله واطلبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك ولا تشرد عنه
من هذه الأربعة ، فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها ، وما شر به
ما شرد عنه بخذلانه إلا منها ، فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش
بمولاه ، والمخذول يصدر ذلك عنه بنفسه وهواه .

مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها كمثال نواة غرستها فصارت شجرة
ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها ، فكلما أثمر منها شيء جنيت
ثمره وغرست نواه . وكذلك تداعى المعاصي ، فليتدبر اللبيب هذا المثال .
فن ثواب الحسنة الحسنه بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها .

(١) الشروش في عرف أهل الشام : جذور النبات وأصول الشيء .

ليس العجب من مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يمل من خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنما العجب من مالك يتحجب إلى مملوكه بصنوف انعامه ويتودد إليه بأنواع احسانه مع غناه عنه.

كفى بك عزا أنك له عبد وكفى بك فخرا انه لك رب

فصل

حكم متفرقة

* إياك والمعاصي فإنها أذلت عز «اسجدوا» وأخرجت اقطاع «اسكن» .
* يالها لحظة أثمرت جراحة القلق ألف سنة مازال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص ويرسلها مع أنفاس الأسف حتى جاءه توقيع فتاب عليه .

* فرح إبليس بنزول آدم من الجنة، وما علم أن هبوط الغائص في اللجة (١) خلف الدر صعود .

* كم بين قوله لآدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢)

وقوله لك: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ (٣)

ما جرى على آدم هو المراد من وجوده لو لم تذنبوا .

* يا آدم لا تجزع من قولى لك: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ (٤)

فللك ولصالح ذريتك خلقتها . يا آدم كنت تدخل على دخول المملوك ، على المملوك واليوم تدخل على دخول العبيد على المملوك . يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك ، فقد استخرج منك داء العجب وألبست خلعة العبودية «..وعسى أن تكرهوا..» . يا آدم لم أخرج اقطاعك

(١) اللجة: تردد أمواج البحر .

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠ .

(٣) سورة الإسراء: الآية ٦٣ .

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٨ .

إلى غيرك إنما نحيتك عنه لأكمل عمارته لك ، وليبعث إلى العمال نفقة «.. تتجافى جنوبهم ..». تالله مانفعه عند معصيته عز «اسجدوا..» ولا شرف «وعلم آدم ..» ولا خصيصة

﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ (١)

ولا فخر ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (٢)

وإنما انتفع بذل : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ (٣)

لما لبس درع التوحيد على بدن الشكر وقع سهم العدو منه فى غير مقتل فجرحه فوضع عليه جبار الانكسار فعاد كما كان فقام الجريح كأن لم يكن به قلبية (٤).

فصل

سلمان الفارسى

نجائب (٥) النجاة مهياة للمراد ، وأقدام المطرود موثوقة بالقيود . هبت عواصف الأقدار فى بيداء الأكوان فتقلب الوجود ونجم الخير ، فلما ركدت الريح إذا أبو طالب (عم الرسول صلى الله عليه وسلم) غريق فى لجة الهلاك ، وسلمان (٦) على ساحل السلامة ، والوليد بن المغيرة (٧) يقدم

(١) سورة ص : الآية ٧٥ . (٢) سورة الحجر : الآية ٢٩ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٢٣ . (٤) القليلة : الألم والعلّة .

(٥) نجائب الإبل : خيارها ، ونجائب الأشياء : لبائها وخالصها .

(٦) أصل سلمان الفارسى من مجوس أصهبان ، واختلف فى اسمه قبل الإسلام . نشأ فى قرية جيان ورحل إلى الشام فالموصل ، فنصيبين ، فعمورية ، فالمدينة المنورة حيث أسلم . وقصة إسلامه قصة طويلة طريفة ، رواها ابن الأثير فى أسد الغابة وغيره . وهو الذى أشار على المسلمين بحفر الخندق عندما حاصرت الأحزاب المدينة .

كان مجراً فى العلم لا ينزف ، قوى الجسم وصحيح الرأى ، عين أميراً على المدائن فأقام فيها حتى توفى ، وقد عمر كثيراً ، وكانت وفاته سنة ٣٦ هـ = ٦٥٦ م .

(٧) هو ابن الوليد بن المغيرة أخو خالد بن الوليد ، لما أسلم حبسه أخواله فكان النبى صلى -

قومه فى التيه، صهيب^(١) قد قدم بقافلة الروم، والنجاشى^(٢) فى أرض الحبشة يقول: لبيك اللهم لبيك، وبلال^(٣) ينادى: الصلاة خير من النوم، وأبو جهل فى رقدة المخالفة.

لما قضى فى القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه فى التجسس^(٤)، فأقبل يناظر أباه فى دين الشرك، فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد. وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرفوه، وبه أجاب فرعون موسى:

﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي﴾^(٥)

وبه أجاب الجهمية^(٦) الامام أحمد لما عرضوه على السياط، وبه أجاب

الله عليه وسلم يدعوه فى القنوت كما ثبت فى الصحيح: «اللهم أنج الوليد والمستضعفين من المؤمنين». ثم أفلت من الحبس ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم. يقال إنه مشى على رجله لما هرب وطلبوه فلم يدركوه.

(١) هو صهيب بن سنان بن مالك النخري وأمه من بنى تميم، فهو عربى الأيوين، كان أبوه عاملاً لكسرى على ألبلة (البصرة)، وقد سمي بالرومي لأن الروم سبوه صغيراً، ونشأ بينهم حتى كاد ينسى العربية فأصبح ينطقها بلكنة أعجمية.

وقد تناولته الأيدي فى سوق الرقيق، كغيره من الأرقاء، حتى آل به الأمر إلى مكة المكرمة. وعندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سارع إلى اعتناق الإسلام، وكان من المستضعفين فى مكة، فعذب فى دين الله عذاباً شديداً حتى استطاع أن يشتري نفسه بماله كله وهاجر إلى المدينة. وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ واحداً والمشاهد كلها.

(٢) النجاشى: لقب ملك الحبشة، يقال إن اسمه أصحمة بن أبجر. وقصة إحسانه إلى المسلمين عندما هاجروا إليه معروفة ومشهورة. وقد صلى عليه النبي يوم وفاته (صلاة الغائب).

(٣) هو بلال بن رباح الحبشى، أبو عبد الله، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد السابقين إلى الإسلام، وكان من مولدى بنى جحج. عذبه المشركون، حتى أن أمية بن خلف كان يخرج به إلى بطحاء مكة إذا حيت الظهيرة، فيطرحه أرضاً ويضع على صدره صخرة كبيرة لكيف يحمد، وهو يقول: أحد، أحد. وبقي على هذه الحال حتى اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه فى سبيل الله. ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أذن بلال لم يؤذن بعد ذلك. وخرج مع جيش الفتح إلى بلاد الشام وتوفى هناك فى خلافة عمر. له فى البخارى ومسلم ٤٤ حديثاً.

(٤) أى فى دين الجوسية. (٥) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

(٦) الجهمية: هم أتباع جهم بن صفوان الراسبي (توفى سنة ٧٤٥هـ). وقد زعم بأن الجنة -

أهل البدع شيخ الإسلام حين استودعوه السجن (وها نحن أولاء على الأثر)
فنزل به ضيف «ولنبيلونكم» فقال باكرامه مرتبة «سلمان منا أهل
البيت»، فسمع أن ركبا على نية السفر، فسرق نفسه من أبيه ولا قطع،
فركب راحلة العزم يرجو أدراك مطلب السعادة، فغاص في بحر البحث
ليقع بدرة الوجود، فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء، فلما
أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه اعلام الاعلام على نبوة نبينا
وقالوا: إن زمانه قد أظلم فأحذر أن تضل، فرحل مع رفقة لم يرفقوا به:

﴿وَشَرُّهُ يَشْمَنِ بِحَسْرِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ (١)

فأبتاعه يهودى بالمدينة، فلما رأى الحرة توقد حرا شوقه، ولم يعلم رب
المنزل بوجود النازل. فبينما هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدم
البشير، وسلمان فى رأس نخلة، وكاد القلق يلقيه لولا أن الحزم أمسكه
كما جرى يوم:

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ (٢)

فعجل النزول لتلقى ركب البشارة ولسان حاله يقول:
خليل من نجد قفا بى على الربا فقد هب من تلك الديار نسيم.

فصاح به سيده مالك: انصرف إلى شغلك. فقال:

— كيف انصرافى ولى فى داركم شغل؟

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش (٣):

خليلى لا والله. ما أنا منكما إذا علم من آل ليلى بداليا

- والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به. وأنه لا فعل ولا عمل لأحد
غير الله، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. وأن علم الله حادث وغير ذلك من
الضلالات.

(٢) سورة القصص: الآية ١٠.

(١) سورة يوسف: الآية ٢٠.

(٣) الأطروش: الأطرش الذى لا يسمع.

فلما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه :
 «يا محمد أنت تريد أبا طالب ونحن نريد سلمان ، أبو طالب إذا سئل
 عن اسمه قال عبد مناف وإذا انتسب افتخر بالآباء ، وإذا ذكرت
 الأموال عد الابل . وسلمان إذا سئل عن اسمه قال عبد الله ، وعن
 نسبه قال ابن الإسلام ، وعن ماله قال الفقر ، وعن حانوته قال المسجد ،
 وعن كسبه قال الصبر ، وعن لباسه قال التقوى والتواضع ، وعن وساده
 قال السهر ، وعن فخره قال سلمان منا ، وعن قصده قال يريدون
 وجهه ، وعن سيره قال إلى الجنة ، وعن دليله في الطريق قال إمام
 الخلق وهادي الأئمة » .

إذا نحن أدلجنا (١) وأنت إمامنا كفى بالمطايا طيب ذكراك حاديا
 وإن نحن أضللنا الطريق ولم نجد دليلا كفانا نور وجهك هاديا
 عبر وعظات :

- الذنوب جراحات ، ورب جرح وقع في مقتل .
- لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له .
- دخلت دار الهوى فقامرت بعمرك .
- إذا عرضت نظرة لاتحل فاعلم أنها مسعر حرب فاستر منها
 بحجاب «قل للمؤمنين» ، فقد سلمت من الأثر وكفى الله المؤمنين
 القتال .

— بحر الهوى إذا مد أغرق ، وأخوف المنافذ على السايح فتح البصر
 في الماء

مأأحد أكرم من مفرد في قبره أعماله تونسه
 منعما في القبر في روضة ليس كعبد قبره محبسه

* * *

(١) أدلج القوم : ساروا من أول الليل .

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه ويعرف عنه الصبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطباره فقد قل مما يرتجيه نصيبه

— كم قطع زرع قبل التمام فما ظن الزرع المستحصد .

— اشتر نفسك ، فالسوق قائمة والثن موجود .

— لا بد من سنة الغفلة ورقاد الهوى ، ولكن لن خفيف النوم
فحراس البلد يصيحون : دنا الصباح .

— نور العقل يضىء فى ليل الهوى فتلوح جادة الصواب فيتلمح
البصير فى ذلك النور عواقب الأمور .

— إخرج بالعزم من هذا الفناء (١) الضيق المحشو بالآفات إلى ذلك
الفناء الرحب الذى فيه مالا عين رأت ، فهناك لا يتعذر مطلوب ولا يفقده
محبوب .

— يا بائعا نفسه بهوى من خبه ضنى ، ووصله أذى ، وحسنه إلى
فناء ، لقد بعث أنفس الأشياء بثمان بخس كأنك لم تعرف قدر السلعة
ولا خسة الثمن ، حتى إذا قدمت يوم التغابن (٢) تبين لك الغبن فى عقد
التبائع : لا إله إلا الله سلعة ، الله مشتريها وثمانها الجنة والدلال الرسول ،
ترضى ببيعها بجزء يسير مما لا يساوى كله جناح بعوضة :

إذا كان شىء لا يساوى جميعه جناح بعوض عند من صرت عبده
ويملك جزء منه كملك ما الذى يكون على ذى الحال قدرك عنده
وبعت به نفسا قد استامها (٣) بما لديه من الحسنى وقد زال وده

— يا مخنث العزم أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم ، وناح
لأجله نوح ، ورمى فى النار الخليل ، وأضجع للذبح اسماعيل ، وبيع

(١) الفناء ، بكر الفاء : المتسع أمام الدار ، ويجمع على أفنية .

(٢) أى يوم القيامة . (٣) السوم : عرض السلعة بيع .

يوسف بثمن بخس ولبت في السجن بضع سنين ، ونشر بالمنشار زكريا ،
وذبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضر أيوب ، وزاد على المقدار بكاء
داود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى
الله عليه وسلم ترها أنت باللهو واللعب .

فيادارها بالحزن إن مزارها قريب ، ولكن دون ذلك أهوال
— الحرب قائمة وأنت أعزل في النظارة (١) ، فإن حركت ركابك
فللهزيمة .

— من لم يباشر حر الهجير في طلاب المجد لم يقل فى ظلال
الشرف (٢)

تقول سليمان لو أقت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف
— قيل لبعض العباد : إلى كم تتعب نفسك ؟ فقال : راحتها أريد .

— يامكرما بجملة الايمان بعد حلة العافية وهو يخلقهما فى مخالفة
الخالق لاتنكر السلب (٣) ، يستحق من استعمل نعمة المنعم فيما يكره أن
يسلبها .

— عرائس الموجودات قد تزينت للناظرين ليلوهم أيهم يؤثرهن على .
عرائس الآخرة ، فن عرف قدر التفاوت أثر ما ينبغى ايثاره .

وحسان الكون لما أن بدت أقبلت نحوى وقالت لى إلى
فتعاميت كأن لم أرها عندما أبصرت مقصودى لدى

(١) أى تنزه فى الرياض والبساتين .

(٢) لم يقل : من القيلولة ، وهى نومة منتصف النهار .

(٣) السلب مفعول تنكر ، جملة يستحق تعليل للجملة قبلها ، وفاعل يستحق من استعمل ، وقوله
أن يسلبها : مفعول يستحق .

— كواكب هم العارفين فى بروج عزائمهم سيارة ليس فيها زحل .

— يامن انحرف عن جادتهم كن فى أواخر الركب ونم إذا نمت
على الطريق ، فالأمير يراعى الساقة (١) .

— قيل للحسن : سبقنا القوم على خيل دهم ونحن على حمر
معقرة (٢) ، فقال : إن كنت على طريقهم فأسرع اللحاق بهم .

فائدة

عبر وحكم

* من فقد أنسه بين الناس ووجده فى الوحدة فهو صادق ضعيف .
ومن وجده بين الناس وفقده فى الخلوة فهو معلول . ومن فقده بين
الناس وفى الخلوة فهو ميت مطرود . ومن وجده فى الخلوة وفى الناس
فهو المحب الصادق القوى فى حاله . ومن كان فتحه فى الخلوة لم يكن
مزيده إلا منها . ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان
مزيده معهم . ومن كان فتحه فى وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفى
أى شىء استعمله كان مزيده فى خلوته ومع الناس . فأشرف الأحوال
الا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه ، فكن مع مراده
منك ولا تكن مع مرادك منه .

* مصابيح القلوب الطاهرة فى أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع
«يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار» .

(١) الساقة: مؤخرة الجيش .

(٢) أى مجرحة .

* وحد قس (٣) وما رأى الرسول ، وكفر ابن أبى (٢) وقد صلى معه فى المسجد .

* مع الصب رى ولا ماء ، وكم من عطشان فى اللجة .

* سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية (امراة فرعون) فسبق تابوته إلى بيتها فجاء طفل منفرد عن أم إلى امرأة خالية عن ولد . فله كم فى هذه القصة من عبرة . كم ذبح فرعون فى طلب موسى من ولد ، ولسان القدر يقول : لانزيبه إلا فى حرك .

* كان ذو البجادين (٣) يتما فى الصغر ، فكفله عمه ، فنازعته نفسه

(١) كان قس بن ساعدة مؤمناً بالله مبشراً برسوله ، بضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة ، فيقال : أبلغ من قس ، وهو بضم القاف وتشديد السين المهملة . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل وقد بكر ، عند قدمهم عليه ، عن رجل كان فيه نازلا ، يقال له قس بن ساعدة الأيادى ، قالوا : هلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعكاز يخطب عسى جل له أورك ، وهو يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت ، ليل موضوع ، وسف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحر يجر . أما بعد : فإن فى الساء خبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كما هم فناموا ! أقسم بالله قس قسماً حقاً ، لما حنت ولا أثم ، إن الله ديناً هو أرضى من ديننا هذا الذى نحن عليه . ثم قال آياتاً ما أحفظها فقال : رجل من الأنصار : أنا شاهد يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : فأنشدنا ، قال سمعته يقول :

فى السذاهبين الأول —
لما رأيت موارد —
ورأيت قومي نحوها —
لا يرجع الماضى ولا —
أيقنت أنى لا محالة —
بين من القرون لنا بصائر —
للموت ليس لها مصادر —
تمضى الأصاغر والأكابر —
يبقى من الباقيين غابر —
حيث صار القوم صائر —

(٢) هو عبد الله بن أبى بن مالك بن الحارث ، أبو الحباب ، المشهور بابن سلوك . رأس المنافقين فى المدينة . كان سيد الخزرج فى الجاهلية ، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقية .

(٣) البجاد : الكساء . واسم «ذو البجادين» عبد الله بن عبد نهم . ولما أراد القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعت أمه بجاداً لها قطعتين ، ارتدى احدهما واتنزر بالأخرى ، فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم «ذو البجادين» .

إلى اتباع الرسول فهم بالنهوض فإذا بقية المرض مانعة ففقد ينتظر العم ،
فلما تكاملت صحته نفذ الصبر فناداه ضمير الوجد :

إلى كم حبسها تشكو المضيقاً أئرها ربما وجدت طريقاً

فقال : يا عم طال انتظاري لا سلامك وماأرى منك نشاطا . فقال :
والله لئن أسلمت لانتزعن كل ما أعطيتك . فصاح الشوق : نظرة من
محمد أحب إلى من الدنيا وما فيها .

ولوقيل للمجنون ليلي ووصلها تريد أم الدنيا وما في طواياها
لقال غبار من تراب نعالها ألد إلى نفسي وأشهى لبلوها

فلما تجرد للسير إلى الرسول جرده عمه من الثياب ، فناولته الأم بجادا
فقطعه لسفر الوصل نصفين أترز بأحدهما وارثدى بالآخر . فلما نادى
صائح الجهاد قنع أن يكون فى ساقه الأحباب ، والمح لا يرى طول
الطريق لأن المقصود يعينه .

ألا بلغ الله الحمى من يريده وبلغ أكناف الحمى من يريدها

فلما قضى نجه نزل الرسول صلى الله عليه وسلم يمهده له لحدته وجعل
يقول : « اللهم إني أمسيت عنه راضيا فارض عنه » . فصاح ابن
مسعود : ياليتنى كنت صاحب القبر .

فيا مخنث العزم أقل ما فى الرقعة البيدق ، فلما نهض تفرزن (١) .

* رأى بعض الحكماء برذونا (٢) يسقى عليه ، فقال : لو هملج (٣)
هذا ، لركب .

(١) القِرْزَن هو بمنزلة الوزير للسلطان ، والبيدق ، بالذال المعجمة ، وقيل بالذال المهملة ، وهو
بمنزلة العساكر ، وكلاهما من قطع الشطرنج معروف عند أهل اللعب به . ومنه قولهم : تفرزن
البيدق : صار فرزاناً . والمعنى ظاهر أن الإنسان إذا نهض وجد فى التحصيل أدرك معالى الأمور
وساد .

(٢) البرذون : يطلق على غير العربى من الخيل والبغال ، غليظ الأعضاء والحوافر .

(٣) هملج : أى سار سيراً حسناً فى سرعة .

* أقدم العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها سد القواطع .
 * القواطع محن يتبين بها الصادق من الكاذب ، فإذا خضتها انقلبت
 أعوانا لك توصلك إلى المقصود .

فصل

الدنيا خداعة

الدنيا كامرأة بغى لا تثبت مع زوج إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا
 عليها ، فلا ترضى بالديانة .

ميزت بين جمالها وفعالها فإذا الملاحاة بالقباحة لا تفي
 حلفت لنا الا تخون عهودنا فكأنها حلفت لنا الا تفي
 السير فى طلبها سير فى أرض مسبعة (١)، والسباحة فيها سباحة فى
 غدير التمساح . المفروح به منها هو عين المحزون عليه . آلامها متولدة من
 لذاتها ، وأحزانها من أفراحها .

مآرب كانت فى الشباب لأهلها عذاب فصارت فى المشيب عذابا
 طائر الطبع يرى الحبة وعين العقل ترى الشرك غير أن عين الهوى
 عمياء .

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدى المساويا
 تزخرفت الشهوات لأعين الطباع فغض عنها الذين يؤمنون بالغيب
 ووقع تابعوها فى بيداء الحسرات ، ف:

(١) أرض مسبعة: أى أرض كثيرة السباع .

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)

وهؤلاء يقال لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ (٢)

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أَمَاتُوا فيها الهوى طلبا لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما أنتهبه العدو منهم فى زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد ففرب عليهم البعيد، وكلما أمرت لهم الحياة حلى لهم تذكر:

﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣)

وركب سربوا والليل ملق رواقه على كل مغبر المطالع قائم (٤)
حدوا عزمات ضاعت الأرض بينها فصار سراهم فى ظهور العزائم
تريهم نجوم الليل مايتبعونه على عاتق الشعرى وهام النعائم (٥)
إذا أطردت فى معرك الجد قصفوا رماح العطايا فى صدور المكارم

فصل

أعجب العجائب

من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الاجابة. وأن تعرف قدر الربح فى معاملته ثم تعامل غيره. وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له. وأن تذوق ألم الوحشة فى معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته. وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض فى غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته. وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والانابة إليه.

(١) سورة البقرة: الآية ٥.

(٢) سورة المرسلات: الآية ٤٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٣.

(٤) رواق الليل: مقدمة وجانبه. والمقصود: مسدل ظلامه.

(٥) الشعرى: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء.

وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنت أحوج شيء إليه
وأنت عنه معرض وفيها يبعدك عنه راغب .

فائدة

مصدر الحرام

ما أخذ العبد ما حرم عليه إلا من جهتين أحدهما : سوء ظنه بربه
وأنه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيرا منه حالا . والثانية : أن يكون عالما
بذلك وأن من ترك الله شيئا أعاضه خيرا منه ، ولكن تغلب شهوته صبره
وهواه عقله . فالأول من ضعف علمه ، والثاني من ضعف عقله
وبصيرته .

قال يحيى بن معاذ^(١) : من جمع الله عليه قلبه في الدعاء لم يردده .
قلت : إذا اجتمع عليه قلبه وصدقته ضرورته وفاقته وقوى رجاؤه ،
فلا يكاد يرد دعاؤه .

فصل

فوائد وحكم

✽ لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها ، وخداع الأمل لأربابه ،
وتملك الشيطان وقياد النفوس ورأوا الدولة للنفس الأمانة ، لجأوا إلى
حصن التضرع والالتجاء كما يأوى العبد المذعور إلى حرم سيده .

✽ شهوات الدنيا كلعب الخيال ونظر الجاهل مقصور على الظاهر ،
فأما ذو العقل فيرى ما وراء الستر .

(١) يحيى بن معاذ «أبو زكريا» : واعظ ، زاهد ، أقام ببلخ ، ومات في نيسان سنة ٢٥٨ هـ =
٨٧٢ م . له كلمات سائرة ، مثل : «تركبة الأشرار لك هجنة بك ، وحيم لك عيب عليك» . وغير
ذلك كثير .

* لاح لهم المشتى، فلما مدوا أيدي التناول بان لأبصار البصائر
خييط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر وصوبوا إلى الرحيل الثانى :

﴿ يَلْبَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

تلمح القوم الوجود ففهموا المقصود فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل وشمروا
للسير فى سواء السبيل، فالناس مشتغلون بالفضلات وهم فى قطع
الفلوات (٢)، وعصافير الهوى فى وثاق الشبكة ينتظرون الذبح .

* وقع ثعلبان فى شبكة، فقال أحدهما للآخر: أين الملتقى بعد
هذا؟ فقال : بعد يومين فى الدباغة .

* تالله ما كانت الأيام إلا مناما، فأستيقظوا وقد حصلوا على
الظفر .

* مامضى من الدنيا أحلام، ومابقى منها أمانى، والوقت ضائع
بينهما .

* كيف يسالم من له زوجة لاترحمه، وولد لايعذره، وجار
لايأمنه، وصاحب لاينصحه، وشريك لاينصفه، وعدو لاينام عن
معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مرد، وشهوة غالبة
له، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستول عليه . فإن تولاه الله
وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه
اجتمعت عليه فكانت الهلكة .

* لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحكمة إليهما
واعتقدوا عدم الاكتفاء بها وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان
وأقوال الشيوخ، عرض لهم مر ذلك فساد فى قلوبهم وظلمة فى قلوبهم

(١) سورة يس : الآية ٢٦ .

(٢) الفلوات : جمع فلاة، وهى الأرض الواسعة المقفرة .

وكدر فى أفهامهم ومحق فى عقولهم . وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم ، حتى ربى فيها الصغير وهرم عليها الكبير ، فلم يروها منكرا . فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن والنفس مقام العقل ، والهوى مقام الرشد ، والضلال مقام الهدى ، والمنكر مقام المعروف والجهل مقام العلم ، والرياء مقام الاخلاص ، والباطل مقام الحق ، والكذب مقام الصدق ، والمداهنة مقام النصيحة ، والظلم مقام العدل فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور وأهلها هم المشار إليهم ، وكانت قبل ذلك لأضدادها وكان أهلها هم المشار إليهم .

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت وراياتها قد نصبت وجيوشها قد ركبت ، فبطن الأرض والله خير من ظهرها ، وقلل الجبال خير من السهول ، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس .

✽ أقشعرت الأرض وأظلمت السماء وظهر الفساد فى البر والبحر من ظلم الفجرة ، وذُهِبَت البركات وقلت الخيرات وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة ، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة ، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح . وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمائه ، ومؤذن بليل بلاء قد أدلهم ظلامه فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح . وكأنكم بالباب وقد أغلق وبالرهن وقد غلق (١) وبالجناح وقد علق :

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢)

✽ اشتر نفسك اليوم ، فإن السوق قائمة والثلث موجود والبضائع

(١) غلق الرهن : أى استحققه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٢٢٧ .

رخيصة، وسيأتى على تلك السوق والبضائع يوم لاتصل فيه إلى قليل ولا كثير «..ذلك يوم التغابن» «يوم يعرض الظالم على يديه» .
إذا أنست لم ترحل بزاد من التقى وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت على الا تكون كمثله وانك لم ترصد كما كان أرصدا
* العمل بغير اخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله
ولا ينفعه .

* إذا حملت على القلب هموم الدنيا وأثقالها وتهاونت بأوراده التى
هى قوته وحياته ، كنت كالمسافر الذى يحمل دابته فوق طاقتها ولا يوفىها
علفها ، فأسرع ماتقف به .
ومشيت العزمات ينفق عمره حيران لا ظفر ولا اخفاق
* * *

هل السائق العجلان يملك أمره فـا كل سير اليعملات وخيد(١)
رويدا باخفاف المطى فانما تداس جباه تحتها وخدود
* من تلمح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر .
* الغاية أول فى التقدير، آخر فى الوجود ، مبدأ فى نظر العقل
منتهى فى منازل الوصول .
* ألفت عجز العدة،فلوعلت بك همتك ربا المعالى لاحت لك
أنوار العزائم .

* انما تفاوتت القوم بالهمم لا بالصور .
* نزول همة الكساح (٢) دلالة فى جب العذرة (٣) .

(١) اليعملات: جمع يعمله، وهى الناقة النجيبة المطبوعة على العمل .
الوخد: ضرب من سير الإبل . و «وخد البعير وخيداً»: أسرع ووسع الخطى .
(٢) الكساح: هو الذى صنعتته كنس الأوساخ من الشوارع والطرق .
(٣) العذرة: الغائط .

- * بينك وبين الفائزين جبل الهوى نزلوا بين يديه ونزلت خلفه ،
فاطو فضل منزل تلحق بالقوم .
- * الدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفى السابق ، والناس فى
المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حمر معقرة .
- سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حار
* فى الطبع شرة ، والحمية أوفق .
- * لص الحرص لا يمشى إلا فى ظلام الهوى .
- * بحبة المشتى تحت فخ التلف فتفكر الذبح وقد هان الصبر .
- * قوة الطمع فى بلوغ الأمل توجب الاجتهاد فى الطلب ، وشدة
الحذر من فوت المأمول .
- * البخيل فقير لا يؤجر على فقره .
- * الصبر على عطش الضر ولا الشرب من شرعة من .
- * تجوع الحرة ولا تأكل بشديها .
- * لا تسأل سوى مولاك ، فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه .
- * غرس الخلوة يثمر الأئس .
- * استوحش مما لا يدوم معك ، واستأنس بمن لا يفارقك .
- * عزلة الجاهل فساد ، وأما عزلة العالم فحداؤها وسقاؤها .
- * إذا اجتمع العقل واليقين فى بيت العزلة واستحضر الفكر وجرت
بينهم مناجاة :

أثاك حديث لا يمل سماعه شهى إلينا نشره ونظامه
إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المعنى ظلامه

* إذا خرجت من عدوك لفظة سفه فلا تلحقها بمثلها تلقحها ونسل
الخصام نسل مذموم .

* حيثك لنفسك أثر الجهل بها ، فلو عرفتها حق معرفتها أعنت
الخصم عليها .

* إذا اقتدحت نار الانتقام من نار الغضب ابتدأت باحراق القادح .

* أوثق غضبك بسلسلة الحلم فإنه كلب إن أفلت أتلغ .

* من سبقت له سابقة السعادة دل على الدليل قبل الطلب .

* إذا أراد القدر شخصا بذر في أرض قلبه بذر التوفيق ثم سقاه بماء
الرجبة والرهبة ثم أقام عليه بأطوار المراقبة واستخدم له حارس العلم فإذا
الزرع قائم على سوقه .

* إذا طلع نجم المهمة في ظلام ليل البطالة ، وردفه قر العزيمة ،
أشرقت أرض القلب بنور زبها .

* إذا جن الليل تغالب النوم والسهر ، فالخوف والشوق في مقدم
عسكر اليقظة ، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة ، فإذا حمل العزم حمل
على الميمنة وانهزمت جنود التفريط ، فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت
السهمان وردت الغنيمة لأهلها .

* سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة ، النجائب (١) في الأول
وحاملات الزاد في الأخير .

* لاتسأم من الوقوف على الباب ولو طردت ، ولا تقطع الاعتذار
ولو رددت ، فإن فتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين
وادخل دخول الطفيلية كف (وتصدق علينا) .

(١) النجائب: جمع نجبة، وهي خيار الإبل .

* يامستفتحا باب المعاش بغير اقليد (١) التقوى ، كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق .

* لو وقفت عند مراد التقوى لم يفتك مراد .

* المعاصى سد فى باب الكسب ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

تالله ماجشتكم زائرا إلا وجدت الأرض تطوى لى
ولانثنى عزمى عن بابكم إلا تعشرت بأذىالى

* الأرواح فى الأشباح كالأطيار فى الأبراج ، وليس ماأعد
للاستفراخ كمن هبىء للسباق .

* من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا
يوليه من العمل وبأى شغل يشغله .

* كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا ، فإن الولد يتبع
الأم .

* الدنيا لاتساوى نقل أقدامك إليها ، فكيف تعدو خلفها ؟ .

* الدنيا جيفة ، والأسد لايقع على الجيفة .

* الدنيا مجاز والآخرة وطن ، والأوطار (٢) إنما تطلب فى الأوطان .

* الاجتماع بالأخوان قسمان :

أحدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت ، فهذا مضرته
أرجح من منفعته ، وأقل مافيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت .

الثانى : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصى
بالحق والصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ، ولكن فيه ثلاث آفات :

(١) الأقليد : المفتاح .

(٢) الأوطار : جع وطر ، وهو الحاجة فيها مأرب وهمة .

لأحداها: تزيين بعضهم لبعض. الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود. وبالجملية، فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمانة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبات للطيبات، وعكس ذلك.

قاعدة

لا حول ولا قوة إلا بالله

ليس في الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير، بل لا يؤثر سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره. هذا في الأسباب المشهودة بالعيان، وفي الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس في الحيوان والنبات فإنه موقوف على أسباب أخرى، من وجود محل قابل، وأسباب أخرى تنضم إلى ذلك السبب. وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل، وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها، فكل ما يخاف ويرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تأثيره على غيره إلا الله الواحد القهار، فلا ينبغي أن يرجى ولا يخاف غيره. وهذا برهان قطعي على أن تعلق الرجاء والخوف بغيره باطل، فإنه لو فرض أن ذلك سبب مستقل واحد بالتأثير لكانت سببته من غيره لا منه، فليس له من نفسه قوة يفعل بها، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها، فالحول والقوة التي يرجى لأجلها المخلوق ويخاف إنما هما لله وبيده في الحقيقة. فكيف يخاف

ويرجى من لاحول له ولا قوة، بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب
الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه، فإنه على قدر خوفك من غير
الله يسلط عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان. وهذا حال
الخلق أجمعه وإن ذهب عن أكثرهم علما وحالا، فما شاء الله كان
ولابد، وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة
التوحيد يدفع الشدائد

التوحيد مفرع أعدائه وأوليائه: فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا
وشدائدها

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (١)

وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فرغ
إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات. وفرغ إليه اتباع الرسل فنجوا به
مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة. ولما فرغ إليه
فرعون، عند معاينة الهلاك وإدراك الفرق، لم ينفعه، لأن الإيمان عند
المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده. فما دفعت شدائد الدنيا بمثل
التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي
مادعا بها مكروب إلا فرج الله كربته بالتوحيد. فلا يلقي في الكرب
العظام إلا الشرك ولا ينجى منها إلا التوحيد، فهو مفرع الخليقة وملجؤها
وحصنها وغياثها. وبالله التوفيق.

فائدة

المحبة تتبع المعرفة

اللذة تابعة للمحبة، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، فكلمها كانت
الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتم.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٥

والمحبة والشوق تابع لمعرفة والعلم به، فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة وكمال اللذة إلى العلم والحب، فمن كان يؤمن بالله وأسمائه وصفاته وبه أعرف، كان له أحب، وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه أتم. وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر، فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد؟! وكمال العبد بحسب هاتين القوتين: العلم والحب، وأفضل العلم العلم بالله، وأعلى الحب الحب له وأكمل اللذة بحسبها. والله المستعان.

قاعدة

حبسان مفيدان

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقي ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه. ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفر منها إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس. وبالله التوفيق

التقوى

ودع ابن عون (١) رجلاً فقال: عليك بتقوى الله، فإن المتقى ليست

(١) ابن عون: هو عبد الله الفقيه (ابن حجر).

عليه وحشة . وقال زيد بن أسلم (١) : كان يقال : من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا . وقال الثوري (٢) لابن أبي ذئب : إن اتقيت الله كفأك الناس ، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئاً . وقال سليمان بن داود (٣) : أوتينا مما أوتي الناس ومما لم يؤتوا وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا ، فلم نجد شيئاً أفضل من تقوى الله في السر والعلانية ، والعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى . وفي الزهد للامام أحمد أثر إلهي : « ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونه ، فإن سألتني لم أعطه ، وإن دعاني لم أجبه ، وإن استغفرني لم أغفر له . وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السموات والأرض رزقه ، فإن سألتني أعطيته ، وإن دعاني أجبته ، وإن استغفرني غفرت له » .

فائدة جلية

حسن الخلق من التقوى

جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحسن الخلق ، لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه ، وحسن الخلق يصلح ما بينه

(١) هو زيد ابن أسلم العدوي العمري ، فقيه مفسر من أهل المدينة . كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته . استقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق ، وكان ثقة كثير الحديث . له حلقة في المسجد الأموي .

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، من بني ثور بن عبد مناة ، أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث تقي ، وري . كان سيد أهل زمانه في علوم الدين . ولد ونشأ في الكوفة . رفض عرض المنصور العباسي بتولي القضاء . وترك الكوفة سنة ١٤٤ هـ إلى مكة ثم المدينة . وقد لاحقه المهدي فتواري . وانتقل إلى البصرة فأت فيها مستخفياً . وترك عدة مؤلفات .

(٣) هو سليمان بن داود العتكي الزهراني ، أبو الربيع . ولد في البصرة وسكن بغداد . كان فاضلاً تقياً من رجال الحديث . ذكره ابن حبان في الثقات . قال عنه ابن معاذ : أبرزعة وأبو حاتم : ثقة توفي سنة (٢٣٤ هـ = ٨٤٩ م) .

وبين خلقه . فتقوى الله توجب له محبة الله ، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته .

فائدة عبر وعظات

— بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين : خطوة عن نفسه ، وخطوة عن الخلق ، فيسقط نفسه ويلغيا فيما بينه وبين الناس ، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله ، فلا (١) يلتفت إلا إلى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه .

— صاح بالصحابة واعظ ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ (٢)
فجزعت للخوف قلوبهم فجرت من الحذر العيون (فسألت أودية بقدرها) .

— تزينت الدنيا لعلى بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فقال :
«أنت طالق ثلاثا لارجعة لى فيك» . وكانت تكفيه واحدة للسنة ، لكنه جمع الثلاث لثلا يتصور للهوى جواز المراجعة . ودينه الصحيح وطبعه السليم يأنفان من المحلل ، كيف وهو أحد رواة حديث «لعن الله المحلل» (٣) .

— مافى هذه الدار موضع خلوة فاتخذة فى نفسك ، لابد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها على حذر ، ولا تضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها .

— نور الحق أضوأ من الشمس ، فيحق لخفافيش البصائر أن تعيش عنه .

(١) لا : واقعة هنا للنهى . (٢) سورة الأنبياء : الآية ١ .

(٣) المحلل : هو الرجل يتزوج المرأة المطلقة ثلاثاً ثم يطلقها ، وذلك لتحل لزوجها الأول .

— الطريق إلى الله خال من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات ، وهو معمور بأهل اليقين والصبر، وهم على الطريق كالأعلام ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايِنَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

قاعدة

تأثير «لا إله إلا الله» عند الموت

لشهادة «أن لا إله إلا الله» عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات واحباطها ، لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها ، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة ، وانقادت بعد إباطها واستعصائها وأقبلت بعد إعراضها وذلك بعد عزها ، وخرج منها حرزها على الدنيا وفضولها ، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاه الحق أذل ما كانت وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته . وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه ، فزالت منها تلك المنازعات التى كانت مشغولة بها ، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه ، فوجه العبد وجهه بكليته إليه ، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه . فاستسلم وحده ظاهرا وباطنا ، واستوى سره وعلايته فقال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه . وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ماسواه . قد خرجت الدنيا كلها من قلبه وشارف القدوم على ربه ، وخذت نيران شهوته ، وامتلا قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه ، وصارت الدنيا وراء ظهره ، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله ، فطهرته من ذنوبه ، وأدخلته على ربه ، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة ، وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها ، فلوحصلت له الشهادة

(١) سورة السجدة: الآية ٢٤ .

على هذا الوجه فى أيام الصحة لاستوحش من الدنيا واهلها، وفر إلى الله من الناس، وأنس به دون ماسواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الخطوط والالتفات إلى غير الله. فلو تجردت كتجردها. عند الموت لكان لها نأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمى. والله المستعان

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعاده بيده، وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيته. فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيته. إن وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضعيفة وتفريط وذنب وخطيئة. وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيرا له. فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس فى كل ذرة من ذراته باطنا وظاهرا. فاقته تامة إليه. ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه، يتبغض إليه بمعصيته، مع شدة الضرورة إليه من كل وجه، قد صار لذكره نسيا. واتخذ وراءه ظهريا، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه

ما دام الأجل باقيا كان الرزق آتيا

* فرغ خاطرك اللهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان. فما دام الأجل باقيا كان الرزق آتيا. وإذا سد عليك بحكمته طريقا من طرقه فتح لك برحمته طريقا أنفع لك منه فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه، وهو الدم، من طريق واحدة وهو السرة، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين وأجرى له فيها رزقا أطيب وألذ من الأول لبنا خالصا سائغا. فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام فتح طرقا أربعة أكمل

منها: طعامان وشرابان، فالطعامان من الحيوان والنبات، والشرابان من المياه والألبان وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة. لكنه سبحانه فتح له - إن كان سعيدا - طرقا ثمانية، وهى أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء. فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وانفع له. وليس ذلك لغير المؤمن. فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس. والعبد لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين مامنع منه وبين ما ذكر له (١). بل هو مولع بحب العاجل وإن كان ذنيئا، وبقلة الرغبة فى الآجل وإن كان عليا. ولو أنصف العبد ربه، وأنى له بذلك، لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فامنعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا لبيحيه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه فـ

﴿ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ ارَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٢)

والله المستعان. ﴿ قَابِئِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٣)

* من عرف نفسه اشتغل باصلاحها من عيوب الناس.

* من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه.

* انفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالاخلاص وعن نفسك

بشهود المنة، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق

أبواب النار وأصول الخطايا

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب:

(١) أى أدخر وخبىء له.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٢.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩٩.

- ١- باب شبهة أورثت شكاً في دين الله .
- ٢- وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته .
- ٣- وباب غضب أورث العدوان على خلقه .

أصول الخطايا كلها ثلاثة :

- ١- الكبر: وهو الذى أصر أبليس إلى ما أصره .
- ٢- والحرص: وهو الذى أخرج آدم من الجنة .
- ٣- والحسد: وهو الذى جر أحد ابني آدم على أخيه . فن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر . فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغى والظلم من الحسد .

حكمة الله في أجزاء الإنسان

جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم، ظاهرة وباطنة، آلة لشيء إذا استعمل فيه فهو كماله فالعين آلة للنظر . والأذن آلة للسمع . والأنف آلة للشم . واللسان للنطق . والفرج للنكاح . واليد للبطش . والرجل للمشي . والقلب للتوحيد والمعرفة . والروح للمحبة . والعقل آلة للتفكير والتدبر لعواقب الأمور الدينية والدنيوية وإيثار ما ينبغي إيثاره وإهمال ما ينبغي إهماله .

أخسر الناس صفة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس .

في السنن من حديث أبي سعيد الخدري يرفعه «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فانما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا». قوله تكفر اللسان، قيل:

معناه تخضع له^(١). وفى الحديث: إن الصحابة لما دخلوا على النجاشى لم يكفروا له، أى لم يسجدوا ولم يخضعوا. ولذلك قال عمرو بن العاص: أيها الملك، انهم لا يكفرون لك. وإنما خضعت للسان لأنه يريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء. وقولها: إنما نحن بك، أى نجاتنا بك وهلاكنا بك، ولهذا قالت: فإن استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا.

فائدة

اتقوا الله واجملوا فى الطلب

جمع النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله:

«فاتقوا الله واجملوا فى الطلب»^(٢)

بين مصالح الدنيا والآخرة، ونعيمها ولذاتها إنما ينال بتقوى الله، وراحة القلب والبسطن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناد والكد والشقاء فى طلب الدنيا إنما ينال بالاجمال فى الطلب، فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها، ومن أجل فى الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها، فالله المستعان.

قد نادى الدنيا على نفسها لو كان فى ذا الخلق من يسمع
كم واثق بالعيش أهلكته وجامع فرقت ما يجمع

(١) قال ابن الأثير فى النهاية بعد ما أورد الحديث أى تذلل وتخضع، والتكفير هو أن ينحن الإنسان ويطأ رأسه قريباً من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه.

(٢) رواه ابن ماجه فى التجارات.

فائدة المأثم والمغرم

جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين المأثم والمغرم^(١)، فإن المأثم
يوجب خسارة الآخرة، والمغرم يوجب خسارة الدنيا.

فائدة الجهاد

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)

علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا،
وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا.
فمن جاهد هذه الأربعة فى الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته،
ومن ترك الجهاد فاتته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد^(٣): والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهديهم سبل
الاخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه فى الظاهر إلا من جاهد هذه
الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر
عليه عدوه.

(١) أى فى التعوذ منها، والمغرم عكس المغنم، ما يجب أدائه.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٣) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفى من العلماء بالدين.
مولده ونشأته ووفاته فى بغداد، قال أحد معاصريه: مارأت عناية مثله، الكتب يحضرون مجلسه
لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وقال ابن الأثير فى وصفه: إمام الدنيا فى زمانه.
وعده العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة.

فصل عداوة العقل والهوى

ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب. وابتلى العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمد كل حزب بمجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالا (١) ودولا بين الفريقين إلى أن يستولى أحدهما على الآخر ويكون الآخر مقهورا معه. فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهناك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانسراح الصدر والفوز بالغنائم. وإذا كانت النوبة للنفس والهوى والشيطان فهناك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكارِه وضيق الصدر وحبس الملك. فما ظنك بملك استولى عليه عدوه فأنزله عن سرير ملكه وأسرّه وحبسه وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له، ومع هذا فلا يتحرك لطلب ثأره ولا يستغيث بمن يغيثه ولا يستنجد بمن ينجده. فوق هذا الملك ملك قاهر لا يقهر وغالب لا يغلب وعزيز لا يذل، فأرسل إليه: إن استنصرتني نصرتك وإن استغثت بي أغثتك وإن التجأت إلى أخذت بشأرك وإن هربت إلى وأويت إليّ سلطتك على عدوك وجعلته تحت أسرك

فإن قال هذا الملك المأسور: قد شدّ عدوى وثاقي وأحكم رباطي واستوثق مني بالقيود ومنعني من النهوض إليك والفرار إليك والمسير إلى بابك، فإن أرسلت جندا من عندك يحلّ وثاقي ويفك قيودي ويخرجني من حبسه، أمكنني أن أوافي بابك، وألا لم يمكنني مفارقة محبسي ولا كسر قيودي.

(١) الحرب السجال: التي يكون النصر فيها كل مرة لطرف.

فإن قال ذلك احتجاجا على ذلك السلطان ودفعاً لرسالته ورضاً بما هو فيه عند عدوه، خلاه السلطان الأعظم وحاله وولاه ماتولى

وإن قال ذلك افتقاراً إليه وإظهاراً لعجزه وذله وأنه أضعف وأعجز أن يسير إليه بنفسه ويخرج من حبس عدوه ويتخلص منه بحوله وقوته، وأن من تمام نعمته ذلك عليه كما أرسل إليه هذه الرسالة أن يده من جنده ومماليكه بمن تعينه على الخلاص ويكسر باب محبسه ويفك قيوده، فإن فعل به ذلك فقد أتم انعامه عليه، وإن تخلى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقاً هو له. وإن حمده وحكمته اقتضى منعه وتخليته فى محبسه، ولا سيما إذا علم أن الحبس حبسه وأن هذا العدو الذى حبسه مملوك من ممالكه وعبد من عبيده، ناصيته بيده لا يتصرف إلا بإذنه ومشيطته، فهو غير ملتفت إليه ولا خائف منه ولا معتقد أن له شيئاً من الأمر ولا بيده نفع ولا ضرر، بل هو ناظر إلى مالكه ومتولى أمره ومن ناصيته بيده قد أفرده بالخوف والرجاء والتضرع إليه والالتجاء والرغبة والرغبة، فهناك تأتية جيوش النصر والظفر

مراتب العلوم

أعلى الهمم فى طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة والفهم عن الله ورسوله نفس المراد وعلم حدود المنزل. وأخس هم طلاب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل ومالم ينزل ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال. وقل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه.

وأعلى الهمم فى باب الإرادة أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف مع مراده الدينى الأمري. وأسفلها أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله، فهو إنما يعبد له مراده منه لا لمراد الله منه، فالأول من الله ويريد مراده، والثانى يريد من الله وهو فارغ عن إرادته.

علماء السوء

علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم. فلو كان مادعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق.

إذا كان الله وحده حظك ومرادك فالفضل كله تابع لك يزدلف (١) إليك، أى أنواعه تبدأ به، وإذا كان حظك ماتنال منه فالفضل موقوف عنك لأنه بيده تابع له فعل من أفعاله، فإذا حصل لك حصل لك الفضل بطريق الضمن والتبع، وإذا كان الفضل مقصودك لم يحصل الله بطريق الضمن والتبع، فإن كنت قد عرفته وأنست به ثم سقطت إلى طلب الفضل حرمك إياه عقوبة لك ففاتك الله وفاتك الفضل.

فائدة

انتصار الرسول

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصر العدو دخل في حصر النصر، فعبثت أيدي سراياه بالنصر في الأطراف فطار ذكره في الآفاق فصار الخلق معه ثلاثة أقسام: مؤمن به، ومسلم له، وخائف منه. ألقى بذر الصبر في مزرعة

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٢)

فإذا أغصان النبات تهتز بخزامي (٣)

(١) أى يتقدم ويقرب.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٣) الخزامي: جنس نبات أنواعه عطرة، والخزامة: حلقة من الشعر توضع في ثقب أنف البعير، وجمعها خزائم.

﴿ وَالْحُرْمَتُ فِصَاصٌ ﴾ (١)

فدخل مكة دخولا مادخله أحد قبله ولا بعده . حوله المهاجرون والأنصار لا يبين منهم إلا الحدق (٢) . والصحابة على مراتبهم ، والملائكة فوق رؤوسهم ، وجبريل يتردد بينه وبين ربه ، وقد أباح له حرمه الذى لم يحله لأحد سواه ، فلما قايص بين هذا اليوم وبين يوم

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ (٣)

فأخرجوه ثانى اثنين .

دخل وذقنه تمس قربوس (٤) سرجه خضوعا وذلا لمن ألبسه ثوب هذا العز الذى رفعت إليه فيه الخليقة رؤوسها ومدت إليه الملوك أعناقها . فدخل مكة مالكا مؤيدا منصورا . وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يجبر فى الرمضاء على جمر الفتنة ، فنشر بزا (٥) طوى عن القوم من يوم قوله : «أحد أحد» . ورفع صوته بالأذان ، فأجابته القبائل من كل ناحية ، فأقبلوا يؤمون الصوت ، فدخلوا فى دين الله أفواجا وكانوا قبل ذلك يأتون آحادا . فلما جلس الرسول على منبر العز ، وما نزل عنه قط ، مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه . فنهض من سلم إليه مفاتيح البلاد ، ومنهم من سأله الموادة والصلح ، ومنهم من أقر بالجزية والصغار ، ومنهم من أخذ فى الجمع والتأهب للحرب ، ولم يدر أنه لم يزد على جمع الغنائم وسوق الأسارى إليه . فلما تكامل نصره وبلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاءه منشور :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٤ .

(٢) الحدق: جمع حدقة، وهى سواد العين .

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠ .

(٤) قربوس السرج: قسم السرج المقوس المرتفع فى مقدم المقعد وفى مؤخره ، فهى قربوسان .

(٥) البز: نوع من الثياب تصنع من الكتان أو القطن .

وَيُنِمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا
عَزِيزًا ﴿١﴾

وبعده توقيع :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أُفْوَاجًا ﴾ ﴿٢﴾

جاءه رسول ربه يخيره بين المقام فى الدنيا وبين لقائه فاختر لقاء ربه
شوقا إليه ، فزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة لا كزينة المدينة يوم
قدوم الملك .

إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بغض أتباعه (٣) فرحا
واستبشاراً بقدوم روحه ، فكيف بقدوم روح سيد الخلائق ؟ فيا منتسبا
إلى غير هذا الجنب ، ويا واقفا بغير هذا الباب ، ستعلم يوم الحشر أى
سريرة تكون عليها «يوم تبلى السرائر» .

فصل غرور الأمانى

يامغرورا بالأمانى : لعن أبلّيس وأهبط من منزل العز بترك سجدة
واحدة أمر بها . وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها . وحجب القاتل عنها
(أى الجنة) بعد أن رآها عيانا بجلء كف من دم . وأمر بقتل الزانى
أشنع القتلات بايلاج قدر الأتملة فيما لا يحل . وأمر بايساع الظهر شياطا
(أى بالجلد) بكلمة قذف أوبقطرة من مسكر . وأبان عضوا من أعضائك

(١) سورة الفتح : الآية ١ - ٣ (٢) سورة النصر : الآية ١ ، ٢ .

(٣) أى بعض أتباع الرسول الكريم ، وهو سعد بن معاذ الأنصارى ، كبير الأوس يشير بذلك
إلى حديث ورد فى البخارى بهذا المعنى .

بثلاثة دراهم^(١) فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾^(٢)

دخلت امرأة النار في هرة^(٣). وأن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار في الوصية^(٤) فيختم له بسوء عمله فيدخل النار. العمر بآخره والعمل بخاتمته.

من أحدث قبل السلام بطل ماضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعاً، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه. لو قدمت لقمة وجدتها^(٥) ولكن يؤذيك الشره.

كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فردّه بواب «سوف ولعل وعسى» كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طيب له ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد، ساهيا في غمرته، عمها^(٦) في سكرته، ساجداً في لجة جهله مستوحشا من ربه، مستأنسا بخلقه، ذكر الناس فاكهته وقوته، وذكر الله حسبه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه وبقينه لغيره.

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه العدل

(١) أى أن الله أمر بقطع يد السارق بثلاثة دراهم يسرقها.

(٢) سورة الشمس: الآية ١٥.

(٣) الحديث: «دخلت امرأة النار في قطعة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» (البخارى في بدء الخلق - مسلم في التوبة - ابن ماجه في الزهد - الدارمي في الرقاق).

(٤) أى أوصى بشكل يخالف أمر الله عز وجل كأن يحرم أحد أولاده، أو زوجته.

(٥) أى لو قدمت في الدنيا لو جدتها في الآخرة.

(٦) العمه: التحير والتردد.

فصل لماذا جعل آدم آخر المخلوقات

كان أول المخلوقات القلم ليكتب المقادير قبل كونها، وجعل آدم آخر المخلوقات وفي ذلك حكم، أحدها: تمهيد الدار قبل الساكن. الثانية: أنه الغاية التي خلق لأجلها ما سواه من السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر. الثالثة: أن أحذق الصنّاع يختم عمله بأحسنه وغايته كما يبدؤه بأساسه ومبادئه. الرابعة: أن النفوس متطلعة إلى النهايات والأواخر دائماً، ولهذا قال موسى للسحرة أولاً:

﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (١)

فلما رأى الناس فعلهم تطلّعوا إلى ما يأتى بعده. الخامسة: أن الله سبحانه آخر أفضل الكتب والأنبياء والأمم إلى آخر الزمان، وجعل الآخرة خيراً من الأولى، والنهايات أكمل من البدايات، فكم بين قول الملك للرسول اقرأ فيقول ما أنا بقارئ، وبين قوله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكَ دِينَكَ ﴾ (٢)

السادسة: أنه سبحانه جمع ما فرقه في العالم في آدم، فهو العالم الصغير وفيه ما في العالم الكبير. السابعة: أنه خلاصة الوجود وثمرته، فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات. الثامنة: أن من كرامته على خالقه أنه هياً له مصالحه وحوائجه وآلات معيشته وأسباب حياته، فما رفع رأسه إلا وذلك كله حاضر عتيد. التاسعة: أنه سبحانه أراد أن يظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات، فقدمها عليه في الخلق، ولهذا قالت الملائكة: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منا. فلما خلق آدم وأمرهم بالسجود له ظهر فضله وشرفه عليهم بالعلم والمعرفة، فلما وقع في

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(١) سورة يونس: الآية ٨٠.

الذنب ظنت الملائكة أن ذلك الفضل قد نسخ ولم تطلع على عبودية التوبة الكامنة، فلما تاب إلى ربه وأتى بتلك العبودية علمت الملائكة أن الله في خلقه سرا لا يعلمه سواه. العاشرة: أنه سبحانه لما افتتح خلق هذا العالم بالقلم كان من أحسن المناسبة أن يحتّمه بخلق الإنسان، فإن القلم آلة العلم، والإنسان هو العالم. ولهذا أظهر سبحانه فضل آدم على الملائكة بالعلم الذي خص به دونهم.

حال إبليس مع آدم:

وتأمل كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض ونبه الملائكة على فضله وشرفه ونوه باسمه قبل إيجاده بقوله:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (١)

وتأمل كيف وسمه بالخلافة وتلك ولاية له قبل وجوده، وأقام عذره قبل الهبوط بقوله: (في الأرض). والمحِب يقيم عذر المحبوب قبل جنايته. فلما صورته ألقاه على باب الجنة أربعين سنة لأن دأب المحب الوقوف على باب الحبيب، ورمى به في طريق ذل (لم يكن شيئا) لئلا يعجب يوم (اسجدوا). وكان إبليس يمر على جسده فيعجب منه ويقول: لأمر قد خلقت، ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول: لئن سلطت عليك لأهلكتك ولئن سلطت على لأعصينك، ولم يعلم أن هلاكه على يده. رأى طينا مجموعا فاحتقره، فلما صور الطين صورة دب فيه ذاء الحسد، فلما نفخ فيه الروح مات الحاسد. فلما بسط له بساط العز عرضت عليه المخلوقات فاستخضر مدعى (ونحن نسبح) إلى حاكم (أنبثوني). وقد أخفى الوكيل عنه بينة (وعلم) فنكسوا رؤوس الدعوى على صدور الاقرار. فقام منادى التفضيل في أندية الملائكة ينادى: (اسجدوا) فتطهروا من حدث دعوى (ونحن) بماء العذر في آنية (لاعلم لنا)،

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠. وراجع ما بعدها لمعرفة الآيات التالية في قصة إبليس مع آدم.

فسجدوا على طهارة التسليم وقام ابليس ناحية لم يسجد، لأنه خبث، وقد تلون بنجاسة الاعتراض. وما كانت نجاسته تتلافى بالتطهير، لأنها عينية، فلما تم كمال آدم قيل: لا بد من خال جمال على وجه (اسجدوا)، فجرى القدر بالذنب ليتبين أثر العبودية في الذل.

يا آدم لو عفى لك عن تلك اللقمة لقال الحاسدون: كيف فضل ذو شره لم يصبر على شجرة. لولا نزولك ماتصاعدت صعداء الأنفاس، ولانزلت رسائل «هل من سائل؟» ولا فاحت روائح «وخلطوف فم الصائم»^(١)، فتبين حينئذ أن ذلك التناول لم يكن عن شره. يا آدم، ضحكك في الجنة لك، وبكاؤك في دار التكليف لنا.

ما ضر من كسره عزي إذا جبره فضلى، إنما تليق خلعة العز ببدن الانكسار أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى. مازالت تلك الأمكلة تعاده^(٢) حتى استولى داؤه على أولاده، فأرسل اليهم اللطيف الخبير الدواء على أيدي أطباء الوجود:

﴿ فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾^(٣).
فحماتهم الطبيب بالمناهى، وحفظ القوة بالأوامر، واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة، فجاءت العافية من كل ناحية.

فيا من ضيع القوة ولم يحفظها، وخلط في مرضه وما احتتمى، ولا صبر على مرارة الاستفراغ لا تنكر قرب الهلاك، فالداء مترام إلى

(١) خلوف فم الصائم: رائحة فمه، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذى نفسى بيده خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، إنما يذير شهوته وطعامه وشرابه من أجلى، فالصيام لى وأنا أجزى به، كل حسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلا الصيام فهو لى وأنا أجزى به». (رواه مالك فى الموطأ وكذلك البخارى ومسلم والترمذى والنسائى).

(٢) أى تأتبه لعداد وقت يتكرر أُلها فى مثله.

(٣) سورة طه: الآية ١٢٣.

الفساد. لو ساعد القدر فاعنت الطيب على نفسك بالحمية من شهوة خسيصة ظفرت بأنواع اللذات وأصناف المشتيات. ولكن بخار الشهوة غطى عين البصيرة، فظننت أن الحزم بيع الوعد بالنقد. يالها من بصيرة عمياء، جزعت من صبر ساعة واحتملت ذل الأبد. سافرت فى طلب الدنيا وهى عنها زائلة، وقعدت عن السفر إلى الآخرة وهى اليها راحلة. إذا رأيت الرجل يشتري الخسيس بالنفيس ويبيع العظيم بالحقير، فاعلم بأنه سفيه.

فصل

فوائد مختلفة

- * لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب.
- * ابن آدم، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً، لقيتك بقرابها مغفرة.
- * لما علم السيد أن ذنب عبده لم يكن قصداً لمخالفته ولا قدحاً فى حكمته، علمه كيف يعتذر إليه
- ﴿ فَتَلَوْنِى أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (١)
- * العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده ولا الجرأة على محارمه، ولكن غلبات الطبع، وتزوين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة هذا من جانب العبد. وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم، واطهار عز الربوبية وذل العبودية، وكمال الاختياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى: كالعفو والغفور والتواب والحليم، لمن جاء تائباً نادماً، والمنتقم والعدل وذى البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة. فهو

(١) سورة البقرة: الآية ٣٧.

سبحانه يريد أن يرى عبده تفرد به بالكمال ونقص العبد وحاجته اليه .
ويشاهده كمال قدرته وعزته وكمال مغفرته وعفوه ورحمته ، وكمال برة
وسنته وحلمه وتجاوزه وصفحه ، وإن رحمته به إحسان اليه لا معارضة ،
وأنه ان لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة . فله كم فى تقدير
الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة .

* التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل ، ورب علة كانت سبب
الصحة .

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجساد بالعلل

* لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب .

* ذنب يذل به أحب اليه من طاعة يدل بها عليه .

* شمعة النصر إنما تنزل فى شمعدان الانكسار .

* لا يكرم العبد نفسه بمثل اهانتها ، ولا يعزها بمثل ذلها ، ولا يريحها
بمثل تعبها ، كما قيل :

سأتعب نفسى أو أصادف راحة فان هوان النفس فى كرم النفس

ولا يشبعها بمثل جوعها ، ولا يؤمنها بمثل خوفها ، ولا يؤتسها بمثل
وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها ولا يحييها بمثل اماتتها ، كما
قيل :

موت النفوس حياتها من شاء أن يحيا يموت

* شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق (١) .

* من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة .

(١) الشرق : الغصة بالماء . ومنه حديث « الحرق والشرق شهادة » أى الذى يشرق بالماء
فيموت .

* يا معرقلا فى شرك الهوى جمزة^(١) عزم وقد خرقت الشبكة، لا بد من نفوذ القدر فاجنح للسلم.

* لله ملك السموات والأرض، واستقرض منك حبة فبخلت بها، وخلق سبعة أبحر وأحب منك دمة فقحطت عينك بها.

* اطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام.

* لذات الدنيا كبسوداء وقد غلبت عليك، والخور العين يعجن من سوء اخيتارك عليهن، غير ان زوبعة الهوى إذا ثارت سفت^(٢) فى عين البصيرة فخفيت الجادة.

* سبحانه الله، تزينت الجنة للخطاب فجدوا فى تحصيل المهر، وتعرف رب العزة إلى المحيين بأسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء وأنت مشغول بالجيف.

لا كان من لسواك منه قلبه ولك اللسان مع الوداد الكاذب.
* المعرفة بساط لا يطاء عليه إلا مقرب، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا محب مغرم.

* الحب غدير فى صحراء ليست عليه جادة، فلهذا قل وارده.

* المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره كهرب الحوت إلى الماء والطفل إلى أمه.

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنك القلب بالسر خاليا

(١) الجمز: العدو والإسراع. ويقال: هونوع من السر أشد من العنق.

(٢) أى ذرت.

* ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبى ، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد . اشتغل به فى الحياة يكفيك ما بعد الموت .

* يا منفقاً بضاعة العمر فى مخالفة حبيبه والبعد منه ، ليس فى أعدائك أضر عليك منك .

ما تبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
* المهمة العلية من أستعد صاحبها للقاء الحبيب ، وقدم التقادى بين
يدى الملتقى ، فاستبشر عند القدام :

﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

* تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى عنك الولى ، فلا تظن أن الشيطان . غلب ولكن الحافظ أعرض .

* احذر نفسك ، فما أصابك بلاء قط إلا منها ، ولا تهادنها ، فوالله ما أكرمها من لم يهنا ، ولا أعزها من لم يذلها ولا جبرها من لم يكسرها ، ولا أراحها من لم يتعبها ، ولا أمنها من لم يخوفها ، ولا فرحها من لم يحزنها .

* سبحان الله ، ظاهره متجمل بلباس التقوى ، وباطنه باطية (٢)
لخمير الهوى ، فكلما طيبت الثوب فاحت رائحة المسكر من تحته ، فتباعد منك الصادقون وانحاز اليك الفاسقون .

* يدخل عليك لص الهوى وأنت فى زاوية التعبد فلا يرى منك طرداً له ، فلا يزال بك حتى يخرجك من المسجد .

* أصدق فى الطلب وقد جاءتك المعونة .

* قال رجل لمعروف : علمنى المحبة ، فقال : المحبة لا تحب بالتعليم .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٣ . (٢) الباطية : إزاء القدر من فخار

هو الشوق مدلولاً على مقتل الفنا^(١) إذا لم يعد صبا بلقيا حبيبه

* ليس العجب من قوله يحبونه، إنما العجب من قوله يحبهم .

* ليس العجب من فقير مسكين يحب محسناً إليه، إنما العجب من محسن يحب فقيراً مسكيناً .

فصل

تجليات الرب

القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى فى جلاباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخضع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح فى الماء، وتارة يتجلى فى صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال. الدال على كمال الذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الالباء، كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطبع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلفاً. وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللفظ والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوى طمعه وسار إلى ربه وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره. وكلما قوى الرجاء جد فى العمل كما أن الباذر كلما قوى طمعه فى المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاءه قصر فى البذر.

(١) المعنى غير واضح، ولعلها: الفنى.

وإذا تجلّى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة،
انقمعت النفس الأمانة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب
واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أئنة^(١) رعوناتها،
فأحضرت المطية حظها من الخوف والحشية والحذر.

وإذا تجلّى بصفات الأمر والنهى والعهد والوصية وإرسال الرسل
وإنزال الكتب وشرح الشرائع، أنبعثت منها قوة الامتثال والتنفيد لأوامره
والتبليغ لها والتواصى بها وذكرها وتذكرها والتصديق بالخبر والامتثال
للطلب والاجتناب للنهى.

وإذا تجلّى بصفات السمع والبصر والعلم، انبعثت من العبد قوة
الحياء فيستحيى من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره،
أو يخفى فى سريره ما يميته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره
موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلّة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلّى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق
أرزاقهم اليهم، ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته
الخاصة لهم، أنبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض اليه والرضا
به وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه.
والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده
وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلّى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت
اليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب
والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار فى قلبه ولسانه وجوارحه وسمته،
ويذهب طيشه وقوته وحدته.

(١) الأئنة: جمع عنان، وهو الذى تمسك به الدابة.

وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات ألهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الالهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربيه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ماسواه. ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له. وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في ألهيته، وألهيته في ربوبيته، وحده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولفظه وإحسانه ورحمته في قيمته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه. ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في اعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضى عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكاً قيوماً فوق سماواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويشيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال منزّه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا باذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا باذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع.

فصل

فضائل أبي بكر

لما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه،

فأعملت آراءها فى استخراج الحيل ، ففهم من رأى الحبس ، ومنهم من رأى النفسى ، ثم اجتمع رأيهم على القتل ، فجاء البريد بالخبر من السماء وأمره أن يفارق المضجع ، فبات على مكانه ونهض الصديق لرفقة السفر ، فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصديق فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه^(١) ، وتارة عن يمينه وتارة عن شماله إلى أن انتهيا إلى الغار ، فبدأ الصديق بدخوله ليكون وقاية له أن كان ثم مؤذ . وأنبت الله شجرة لم تكن قبل ، فأظلت المطلوب وأضلت الطالب ، وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار فحاكت ثوب نسجها على منوال الستر ، فأحكمت الشقة حتى عمى على القائف^(٢) المطلب ، وأرسل (الله) حمامتين فاتخذتا هناك عشاً جعل على أبصار الطالبين غشاوة ، وهذا أبلغ فى الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود .

فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم يسمع الرسول والصديق ، قال الصديق وقد اشتد به القلق : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى ماتحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبابكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » لما رأى الرسول حزنه قد اشتد ، لكن لاعلى نفسه ، قوى قلبه ببشارة

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾^(٣) ،

فظهر سر هذا الاقتران فى المعية لفظاً ، كما ظهر حكماً ومعنى ، إذ يقال رسول الله وصاحب رسول الله ، فلما مات صلى الله عليه وسلم قيل خليفة رسول الله ، ثم انقطعت اضافة الخلافة بموته فقيل أمير المؤمنين .

(١) أى إذا ذكر الصديق الرصد الذى يكون عادة فى الأمام تقدم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا تذكر طلب الأعداء لما الذى يأتى من الخلف تأخر إلى ما وراء الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) القائف : الذى يتبع الأثر . (٣) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

فأقاما فى الغار ثلاثاً ثم خرجا منه ولسان القدر يقول : لتدخلها دخولاً لم يدخله أحد قبلك ولا ينبغى لأحد من بعدك . فلما استقلا على البيداء لحقهما سرقة بن مالك ، فلما شارف الظفر أرسل عليه الرسول سهماً من سهام الدعاء ، فساخت قوائم فرسه فى الأرض إلى بطنها ، فلما علم أنه لا سبيل له عليها أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز ويقدم الزاد إلى شعبان «أبيت عند ربى يطعمنى ويسقبنى» (١) كانت تحفة ثانى اثنين مدخرة للصديق ، دون الجميع ، فهو الثانى فى الإسلام وفى بذل النفس وفى الزهد وفى الصحبة وفى الخلافة وفى العمر ، وفى سبب الموت ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مات عن أثر السم (٢) ، وأبو بكر سم فمات .

أسلم على يديه من العشرة عثمان وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد ابن أبى وقاص .. وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها ، فلماذا جلبت نفقته عليه «مانفعى مال ، مانفعى مال أبى بكر» . فهو خير من مؤمن آل فرعون ، لأن ذلك كان يكتّم إيمانه والصديق أعلن به . وخير من مؤمن آل ياسين ، لأن ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين . ساین طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار ويصيح

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (٣) .

فألقي له حب المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر ، فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة ثم علا على أفنان شجرة الصديق يغرد بفنون المدح ، ثم قال فى محاريب الإسلام يتلو :

﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ رِيَّتَزَكَّى ﴾ (٤) .

(١) راجع البخارى - كتاب الصوم .

(٢) هذا فى بعض الروايات .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .

(٤) سورة الليل : الآية ١٧ - ١٨ .

نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار. فيامبغضيه في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار. أترى لم يسمع الروافض الكفار:

﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ﴾ (١) ؟.

دعى إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فازل ولا كبا، وصبر في مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر في الانفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا (٢) .

تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار «ثاني اثنين إذ هما في الغار» .

من كان قرين النبي في شبابه ؟ من ذا الذي سبق إلى الايمان من أصحابه ؟ من الذي أفنى بحضرته سريعاً في جوابه ؟ من أول من صلى معه ؟ من آخر من صلى به ؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه ؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الألحاظ. فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يفتاظ. حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره، ولكن أين الفرار؟ .

كم وقى الرسول بالمال والنفس، وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس (٣) . فضائله جليلة وهي خلية عن اللبس. يا عجباً! من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار، لقد دخلاً غاراً لا يسكنه لابلث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول: ما ظنك باثنين والله الثالث. فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث. فزال القلق

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠ .

(٢) أى حتى توفى .

(٣) الرمس: القبر.

وطايب عيش الماكث. فقام مؤذن النصر ينادى على رؤوس منائر
الأمصار «ثاني اثنين إذ هما في الغار».

حبه والله رأس الحنيفة، وبغضه يدل على خبث الطوية. فهو خير
الصحابة والقراة والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قبل ابن
الحنفية. مهلاً مهلاً، فان دم الروافض قد فار.

والله ما أحبيناه هواناً، ولا نعتقد في غيره هواناً، ولكن أخذنا بقول
على وكفاننا: «رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدينانا». تالله
لقد أخذت من الروافض بالشار^(١). تالله لقد وجب حق الصديق
عليه، فنحن نقضي بمذاهبه ونقر بما نقر به من السنن^(٢) عيناً، فن
كان رافضياً فلا يعد إلينا وليقل لى أعذار.

تنبيه

حكم متفرقة

- * اجتنب من يعادى أهل الكتاب والسنة لئلا يعيدك خسارته.
- * احترز من عدوين هلك بهما أكثر الخلق: صاد عن سبيل الله
بشبهاته وزخرف قوله، ومفتون بدنياه ورئاسته.
- * من خلق فيه قوة واستعداد لشيء كانت لذته في استعمال تلك
القوة فيه، فلذة من خلقت فيه قوة واستعداد للجماع استعمال قوته فيه،
ولذة من خلقت فيه قوة الغضب والتوثب استعمال قوته الغضبية في
متعلقها، ومن خلقت فيه قوة الأكل والشرب فلذته باستعمال قوته فيها.

(١) يفهم من هذا الكلام أن المؤلف يقصد بالروافض المغالين الذين يفترون على أبي بكر
والخلفاء الراشدين، ولا يقصد بالتكفير عموم الشيعة.

(٢) السنن: ضوء البرق.

ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها إلى العلم . ومن خلقت فيه قوة الحب لله والإنابة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه والأنس به فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة في ذلك . وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية وأحمد عاقبتها أن تكون لاله ولا عليه .

تنبيه

عبر وعظات

* يا أيها الأعزل احذر فراسة المتقى ، فانه يرى عورة عملك من وراء ستر « اتقوا فراسة المؤمن » (١) .

* سبحانه الله . فى النفس كبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود وجراة نمrod واستطالة فرعون وبغى قارون وقحة (٢) هامان وهوى بلعام (٣) ، وحيل أصحاب السبت ، وتمرد الوليد (٤) ، وجهل أبى جهل . وفيها من أخلاق البهائم حرص الغراب ، وشره الكلب ، ورعونة الطاووس ، ودناءة الجعل ، وعقوق الضب ، وحقد الجمل ، ووثوب الفهد ، وصولة الأسد ، وفسق الفأرة ، وخبث الحية ، وعبث القرد ، وجمع النملة ، ومكر الثعلب ، وخفة الفراش ، ونوم الضبع . غير أن

(١) حديث شريف رواه الترمذى فى سننه ، والفراصة - بكسر الفاء - قال فى النهاية : يقال بمعنيين ، أحدهما : مادل ظاهر هذا الحديث عليه وهو ما يوقعه الله تعالى فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس . والثانى : نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق ، فتعرف به أحوال الناس . وللناس فيه تصانيف قديمة وحديثة .

(٢) البقيع : الخالص من اللؤم والكرم وكل شىء . (القاموس)

(٣) بلعام : هو عراف أرسله ملك مؤاب ليلعن إسرائيل فبارك ولم يلعن .

(٤) يبدو أنه يقصد الوليد بن المغيرة الذى نصح قومه بأن يقولوا عن الرسول « إنه ساحر » وفيه نزلت الآية : (ذرني ومن خلقت وحيداً .. إنه كان لآياتنا عنيداً) - راجع قصته مختصر سيرة ابن هشام ، ص ٤٥ ، دار الفنائس .

الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك. فن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (١)

فما اشترى إلا سلعة هذبا الايمان فخرجت من طبعها إلى بلد سكانه التائبون العابدون.

* سلم المبيع قبل أن يتلف في يدك فلا يقبله المشتري، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها، فسلمها ولك الأمان من الرد.

* قدر السلعة يعرف بقدر مشتريها واثن المبدول فيها والمنادى عليها، فإذا كان المشتري عظيماً واثن خطيراً والمنادى جليلاً كانت السلعة نفيسة.

يا بائعا نفسه بيع الهوان لو استرجعت ذا البيع قبل الفوت لم تحب.

وبائع طيب عيش ما له خطر	بطيف عيش من الآلام منتب
غبننت والله غبنناً فاحشاً ولدى	يوم التغابن تلقى غاية الحرب
وواردا صفو عيش كله كدر	امامك الورد حقا ليس بالكذب
وحاطب الليل فى الظلماء منتصبا	لكل داهية تدنى من العطب
ترجو الشقاء بأحداق بها مرض	فهل سمعت ببراء جاء من عطب
ومفنيا نفسه فى أثر أقبحهم	وصفا للطخ جمال فيه مستلب
وواهباً نفسه من مثل ذا سفها	لو كنت تعرف قدر النفس لم تب
شاب الصبا والتصابى بعد لم يشب	وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها	والفىء فى الأفق الشرقى لم يغب
وفاز بالوصل من قد جد وانقشعت	عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت	ورسل ربك قد وافتك فى الطلب

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

تهواه للصب من شكر ولا أرب
ما قاله صاحب الأشواق والحقب
غيلان^(١) أشهى له من ريعك الخرب
أيام كان منال الوصل عن كذب
أشهى إلى ناظري من ريعك الخرب^(٢)
يهوى إليها هوى الماء فى الصبب
فلودعى القلب للسلوان لم يجب
وماله فى سواها الدهر من رغب
بششته بعض شأن الحب فاغترب
بنفحة الطيب لا بالعود والخطب
وحارب النفس لا تلقى فى الحرب
يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب

ما فى للديار وقد سارت ركائب من
فافرش الخد ذياك التراب وقل
ما ربع مية محفوفا يطيف به
منازلا كمان يهواها ويألفها
ولا الحدود ولو أدمين من ضرج
وكلما جليت تلك الربوع له
أحسى له الشوق تذكرا العهد بها
هذا وكم منزل فى الأرض يألفه
ما فى الخيام أخو وجد يريحك ان
وأسرف فى غمرات الليل مهتديا
وعاد كل أخى جنب ومعجزة
وخذ لنفسك نوراً تستضىء به

* * *

بسوء حالى وحل للضنا بدنى
الا رضاك ووافقرى إلى الثمن

ان كان يوجب صبرى رحمتى فرضا
منحتك الروح لا أبغى لها ثمنا

* * *

وبالليل يدعونى الهوى فأجيب

أحسن بأطراف النهار صباية

* * *

فن العجز عشق غير الجميل

وإذا لم يكن من العشق بد

* * *

(٢) الضرج: كثرة الأحرار.

(١) اسم الرجل الذى كان يعشق ميه.

فلو ان أسعى لعيش معجل كفانى منه بعض ما أنا فيه
ولكنها أسعى لملك مخلد فوا أسفا ان لم أكن بملاقيه
* يا من هو من أرباب الخبرة، هل عرفت قيمة نفسك؟ إنما
خلقت الأكوان كلها لك .

* يا من غذى بلبان البر وقلب بأيدي الألفاف، كل الأشياء شجرة
وأنت الثمرة، وصورة وأنت المعنى، وصدف وأنت الدر، وغيض^(١)
وأنت الزبد .

* منشور اختيارنا لك واضح الخط، ولكن استخراجك ضعيف .
* متى رمت طلبى فاطلبنى عندك، أطلبنى منك تجدى قريباً ولا
تطلبنى من غيرك فأنا أقرب اليك منه .

* لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي، إنما أبعدنا ابليس
إذ لم يسجد لك، وأنت فى صلب أبيك، فواعجبا كيف صالحته
وتركتنا! لو كان فى قلبك محبة لبان أثرها على جسدك .

ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى ألت أرى الأعضاء منك كواسيا
* لو تغذى القلب بالحب لذهبت عنه بطنة الشهوات .

ولو كنت عذرى الصباة لم تكن بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل
* لو صحت محبتك لاستوحشت من لا يذكرك بالحبيب . واعجبا لمن
يدعى المحبة ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه، فلا يذكره إلا بذكر . أقل
ما فى المحبة أنها لاتنسبك تذكر المحبوب .

ذكرتك لا أنسى نسيتك ساعة وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

(١) الغيض: اللبن إذا نزع زبد .

* إذا سافر المحبوب للقاء محبوبه ركبته جنوده معه ، فكان الحب
فى مقدمة العسكر ، والرجاء يحدو بالمطى والشوق يسوقها والخوف يجمعها
على الطريق ، فإذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب
باللقاء .

فداو سقماً بجسم أنت متلفه وأبرد غراماً بقلب أنت مضرمه
ولا تكلنى على بعد الديار إلى صبرى الضعيف فصبرى أنت تعلمه
تلق قلبى فقد أرسلته عجلاً إلى لقائك والأشواق تقدمه

* فإذا دخل على الحبيب أفيضت عليه الخلع (١) من كل ناحية
ليمتحن أيسكن إليها فتكون حظه ، أم يكون التفاته إلى من ألبسه إياها .

* ملأوا مراكب القلوب متاعاً لا تنفق إلا على الملك ، فلها هبت
رياح السحر أفلعت تلك المراكب ، فما طلع الفجر إلا وهى بالميناء .

* قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد ، فما كان القليل حتى قدموا من
السفر ، فأعقبهم الراحة فى طريق التلقى ، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا
ربح الأبد .

* فرغ القوم قلوبهم من الشواغل . فضربت فيها سرادقات المحبة ،
فأقاموا العيون تحرس تارة وترش أخرى .

* سرادق المحبة لا يضرب إلا فى قاع نزه فارغ .

نزه فؤادك من سوانا وألقنا فجنابنا حل لكل منزله
الصبر طلسم لكز وصالنا من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

* اعرف قدر ما ضاع وابك بكاء من يدري مقدار الفائت .

* لو تخليت قرب الأحباب لأقت المأتم على بعدك .

(١) الخلع: جمع خلعة ، وهى الثوب .

* لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق منك قلبك المحمور.
* من استطال الطريق ضعف مشيه .

وما أنست بالمشتاق ان قلت بيننا طوال الليالى أو بعيد المفاوز^(١)

* أما علمت أن الصادق إذا هم ألقى بين عينيه عزمه .
* إذا نزل آب فى القلب حل آذار فى العين^(٢) .
* هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك .
* من لاح له حال الآخرة هان عليه فراق الدنيا .
* إذا لاح للباشق الصيد نسي مألوف الكف .
* يا أقدام الصبر أحلى بقى القليل .
* تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة .
* قد علمت أين المنزل فاحد لها تسر .
* أعلى الهمم همة من استعد صاحبها للقاء الحبيب .
* وقدم التقادم بين يدى الملتقى فاستبشر بالرضا عند القدوم ،
« وقدموا لأنفسكم » .

* الجنة ترضى منك بأداء الفرائض ، والنار تندفع عنك بترك المعاصى ، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح .
* لله ما أحلى زمان تسعى فيه أقدام الطاعة على أرض الاشتياق .
* لما سلم القوم النفوس إلى رائف الشرع علمها الوفاق فى خلاف الطبع فاستقامت مع الطاعة كيف دارت دارت معها .

وانى إذا اصطكت رقاب مطيتهم وثوب حاد بالرفاق عجل
أخالف بين راحتين على الحشا وانظر انى ملثم فأميل

(١) المفاوز: جمع مفازة، وهى الصحراء والأرض القفر التى لاماء فيها .

(٢) آب هو الشهر الثانى عشر فى السنة السريانية ، وآذار هو الشهر الأول . وفى آب يشتد الحر ، أما فى آذار فتكثر الأمطار .

فصل

* علمت كلبك فهو يترك شهوته فى تناول ما صاده احتراماً لنعمتك وخوفاً من سطوتك . وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل .

* حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه ، فما ظن الجاهل الذى أعماله لهوى نفسه .

* جمع فيك عقل الملك وشهوة البهيمة وهوى الشيطان وأنت للغالب عليك من الثلاثة : ان غلبت شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملك ، وان غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب .

* لما صاد الكلب لربه (١) أبيح صيده ، ولما أمسك على نفسه حرم ما صاده .

* مصدر ما فى العبد من الخير والشر والصفات المدحوة والمذمومة من صفة المعطى المانع . فهو سبحانه يصرف عباده بين مقتضى هذين الاسمين ، فحظ العبد الصادق من عبوديته بها الشكر عند العطاء ، والافتقار عند المنع ، فهو سبحانه يعطيه ليشكره ، ويمنعه ليفتقر إليه ، فلا يزال شكوراً فقيراً .

وكان الكافر على ربه ظهيراً :

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (٢) ،

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه . وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويفضهم له سبحانه . كما يكون خواص الملك منجبه على

(٢) سورة الفرقان : الآية ٥٥ .

(١) أى لصاحبه .

حرب أعدائه ، والبعيدون منه فارغون من ذلك ، غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه . وعبارات السلف على هذا تدور . ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عونا الشيطان على ربه بالعداوة والشرك . وقال ليث عن مجاهد قال : يظهر الشيطان على معصية الله يعينه عليها . وقال زيد بن أسلم : يظهر أى مواليا . والمعنى : أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به ، فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه .

فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه واله قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه ، ولهذا صدر الآية بقوله :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ (١) ،

وهذه العبادة هى الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة ، فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه ، بخلاف وليه سبحانه ، فانه معه على نفسه وشيطانه وهواه . وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله ، وبالله التوفيق .

والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ..

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٢) ،

قال مقاتل : إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمماً لم يسمعوه ، وعمياناً لم يبصروه ، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به . وقال ابن عباس : لم يكونوا عليه صمماً وعمياناً ، بل كانوا خائفين خاشعين . وقال الكلبي (٣) :

(١) سورة الفرقان : الآية : ٥٥ . (٢) سورة الفرقان : الآية : ٧٣ .

(٣) يبدو أنه يقصد أبا ثور الكلبي ، إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان ، الكلبي ، البغدادي ، وهو من فقهاء الشافعية المبرزين ، قال فيه ابن حبان : « كان أحد أئمة الدنيا فقهياً وعلمياً وورعاً وفضلاً ، صنف الكتب وفرع على السنن ، وذبح عنها » . وروى عن أحمد بن حنبل أنه قال : « هو عندى فى سلاح سفیان الثوري » .

يخرون عليها سمعاً وبصراً. وقال الفراء: وإذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعه، فذلك الخرور^(١). وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني، والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صماً وعمياناً. وقال الزجاج: المعنى: إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكياً سامعين مبصرين كما أمروا به. وقال ابن قتيبة: أى لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعى لم يروها. قلت: ههنا أمران: ذكر الخرور وتسليط النفي عليه، وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً أو بالبدن سجوداً، أو ليس هناك خرور وعبر به عن القعود؟

أصول المعاصي

أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة: تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية، وهى الشرك والظلم والفواحش فغاية التعلق بغير الله شرك وأن يدعى معه إله آخر. وغاية طاعة القوة الغضبية القتل. وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا. ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة فى قوله:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(٢)

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الاخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣)

(١) الخرور: مصدر خر، أى سقط. (ميزان الاعتدال - الأعلام)

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٨. (٣) سورة يوسف: الآية: ٢٤.

فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا. وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد. فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما. أما الأول، ففى قوله:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (١)

وأما الثانى فكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)

والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم، ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان. وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك فى قوله:

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض ويأمر بعضها ببعض. ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدا وأعظم شركا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقا بالصور وعشقا لها. ونظير هذا قوله تعالى:

﴿ قَا أَوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٤)

فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه. وهذا هو التوحيد ثم قال:

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٣) سورة النور: الآية ٣.

(٤) سورة الشورى: الآيات ٣٦، ٣٧.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ (١)

فهذا اجتناب داعى القوة الشهوانية . ثم قال :

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٢)

فهذا مخالفة القوة الغضبية ، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التى هى جماع الخير كله .

فائدة

أنواع هجر القرآن والخرج منه

هجر القرآن أنواع ، أحدها : هجر سماعه والايمان به والاصغاء إليه .
والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به .
والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاد
أنه لا يفيد اليقين وأن ادلته لفظية لا تحصل العلم . والرابع : هجر تدبره
وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه . والخامس : هجر الاستشفاء
والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من
غيره ويهجر التداوى به ، وكل هذا داخل فى قوله :

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣)

وإن كان بعض الهجر أهون من بعض .

وكذلك الخرج الذى فى الصدور منه ، فإنه تارة يكون خرجا من
انزاله وكونه حقا من عند الله . وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه
مخلوقا من بعض مخلوقاته اللهم غيره إن تكلم به ، وتارة يكون من جهة
كفايته وعدمها وأنه لا يكفى العباد ، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات

(١) و (٢) سورة الشورى : الآية ٣٧ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٣٠ .

والأقيسة أو الآراء أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالة وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة. وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر أو وهم أنها مرادة لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدون في صدورهم. ولا تجد مبتدعا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته. فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.

فائدة

كمال النفس

كمال النفس المطلوب ما تضمن أمرين، أحدهما: أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها. الثاني: أن يكون صفة كمال في نفسه. فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمالا، فلا يليق بمن يسعى في كمال نفسه المنافسة عليه ولا الأسف على قوته، وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها وإلهها الحق الذي لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة إلا بمعرفته وإرادة وجهه وسلوك الطريق الموصلة إليه وإلى رضاه وكرامته. وأن تعتاد ذلك فيصير لها هيئة راسخة لازمة. وماعدا ذلك من العلوم والآراء والأعمال فهي بين ما لا ينفعها ولا يكلها وما يعود بضررها ونقصها والمها، ولا سيما إذا صار هيئة راسخة لها، فإنها تعذب وتتألم به بحسب لزومها.

وأما الفضائل المنفصلة عنها كالملايس والمراكب والمساكن والجاه والمال فتلك فى الحقيقة عوار^(١) أعيرتها مدة، ثم يرجع فيها المعير، فتتألم وتتعذب برجوعه فيها بحسب تعلقها بها، ولاسيما إذا كانت هى غاية كمالها، فإذا سلبتها أحضرت أعظم النقص والألم والحسرة.

فليتدبر من يريد سعادة نفسه ولذتها هذه النكته، فأكثر هذا الخلق إنما يسعون فى حرمان نفوسهم والمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها. فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة والسلوك. والمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك. ومتى عدم ذلك وخلأ منه لم يبق فيه إلا القوى البدنية النفسانية التى بها يأكل ويشرب وينكح ويفضب وينال سائر لذاته ومرافق حياته. ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة، بل خساسة ومنقصة. إذ كان إنما يناسب بتلك القوى البهائم ويتصل بجنسها ويدخل فى جملتها ويصير كأحدها. وربما زادت فى تناولها عليه واختصت دونه بسلامة عاقبتها والأمن من جلب الضرر عليها. فكمال تشاركك فيه البهائم وتزيد عليك وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة حقيق أن تهجره إلى الكمال الحقيقى الذى لا كمال سواه، وبالله التوفيق.

فائدة جلية

ثواب الانشغال بالله

إذا أصبح العبد وأمسى وليس هم إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحل عنه كل ما همهم، وفرغ قلبه لمحبه، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وأن أصبح وأمسى والدنيا هم حمله الله همومها وغمومها واتكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبه بمحبة

(١) عوار: جمع عارية. وهى ما يستعيره الإنسان على أن يعيده لصاحبه.

الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش فى خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه فى نفخ غيره. فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلى بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته. قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (١)

قال سفيان بن عيينة (٢): لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتمكم به من القرآن. فقال له قائل: فأين فى القرآن «أعط أخاك تمرة فإن لم يقبل فاعطه جرة؟» فقال فى قوله:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾ (٢): الآية...

فائدة

أقسام العلوم

العلم: نقل صورة المعلوم من الخارج. وإثباتها فى النفس. والعمل: نقل صورة علمية من النفس وإثباتها فى الخارج. فإن كان الثابت فى النفس مطابقاً للحقيقة فى نفسها فهو علم صحيح. وكثيراً ما ثبت ويتراءى فى النفس صور ليس لها وجود حقيقى، فيظنها الذى قد أثبتا فى نفسه علماً، وإنما هى مقدرة لاحقيقة لها. وأكثر علوم الناس من هذا الباب. وما كان منها مطابقاً للحقيقة فى الخارج فهو نوعان: نوع تكمل النفس بإدراكه والعلم به، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه. ونوع لا يحصل للنفس به كمال، وهو كل علم لا يضر الجهل به فإنه لا ينفع العلم به، وكان النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى، أبو محمد، ولد بالكوفة سنة (١٠٧ هـ = ٧٢٥ م)، وسكن مكة وتوفى فيها سنة (١٩٨ هـ = ٨١٤ م). كان حافظاً، ثقة، قال الشافعى فيه: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز».

يستعيز بالله من علم لا ينفع . وهذا حال أكثر العلوم الصحيحة المطابقة
التي لا يضر الجهل بها شيئا ، كالعلم بالفلك ودقائقه ودرجاته ، وعدد
الكواكب ومقاديرها . والعلم بعدد الجبال وألوانها ومساحاتها ونحو ذلك .

فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدة الحاجة إليه . وليس ذلك
إلا العلم بالله وتوابع ذلك . وأما العلم فأفته عدم مطابقته لمراد الله
الدينى الذى يحبه الله ويرضاه ، وذلك يكون من فساد العلم تارة ومن
فساد الارادة تارة . ففساده من جهة العلم أن يعتقد أن هذا مشروع
محبوب لله وليس كذلك ، أو يعتقد أنه يقربه إلى الله وأن لم يكن
مشروعاً ، فيظن أنه يتقرب إلى الله بهذا العمل ، وإن لم يعلم أنه
مشروع .

وأما فساد من جهة القصد فالإقصاء به وجه الله والدار الآخرة ،
بل يقصد به الدنيا والخلق . وهاتان الآفتان فى العلم والعمل لاسبيل
إلى السلامة منها إلا بمعرفة ما جاء به الرسول فى باب العلم والمعرفة
وارادة وجه الله والدار الآخرة فى باب القصد والارادة . فتى خلا من
هذه المعرفة وهذه الارادة فسد علمه وعمله .

والإيمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الارادة ، وهما يورثان
الإيمان ويمدانه . ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الإيمان لانحرافهم
عن صحة المعرفة وصحة الارادة ، ولايم الإيمان إلا بتلقى المعرفة من
مشكاة النبوة ، وتجريد الارادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق ، فيكون
علمه مقتبسا من مشكاة الوحي ، وإرادته لله والدار الآخرة ، فهذا أصبح
الناس علما وعملا وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله ومن خلفاء رسوله
فى أمته .

قاعدة

ظاهر الايمان وباطنه

الايمان له ظاهر وباطن ، وظهره قول اللسان وعمل الجوارح ، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبه . فلا ينفع ظاهر لا باطن له وان حقن به الدماء وعصم به المال والذرية ، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إذا تعذر بعجز أو اكراه وخوف هلاك . فتختلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الايمان ، ونقصه دليل نقصه ، وقوته دليل قوته .

فالإيمان قلب الإسلام ولبه . واليقين قلب الإيمان ولبه . وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فدخل ، وكل ايمان لا يبعث على العمل فدخل .

فائدة

التوكل على الله

التوكل على الله نوعان ، أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أودفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية . والثاني : التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الايمان واليقين والجهاد والدعوة إليه . وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله . فتنى توكل عليه العبد في النوع الثانى حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية . ومتى توكل عليه فى النوع الأول دون الثانى كفاه أيضا ، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه .

فأعظم التوكل عليه التوكل فى الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل ، فهذا توكل الرسل وخاصة اتباعهم .

والتوكل تارة يكون توكل اضطرار والنجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وزرا إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضافت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة. وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأمورا به ذم على تركه. وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضا، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بها والجمع بينهما. وإن كان السبب محرما حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل من أقوى الأسباب على الإطلاق. وإن كان السبب مباحا نظرت هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرق عليك قلبك وشئت همك فتركه أولى، وإن لم يضعفه فببشرته أولى، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة. والذي يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها، فن عطلها لم يصح توكله كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه، فن لم يقم بها كان رجاءه تمنيا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزا وعجزه توكلًا.

وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء. فقول العبد: توكلت على الله، مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله: تبت إلى الله، وهو مصر على معصيته مرتكب لها.

فائدة

شكوى الجاهل

الجاهل يشكو الله إلى الناس ، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه ، فإنه لو عرف ربه لما شكاه ، ولو عرف الناس لما شكوا إليهم . ورأى بعض السلف رجلا يشكو إلى رجل فاقتته وضرورته ، فقال : يا هذا ، والله مازدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ، وفي ذلك قيل :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم
والعارف إنما يشكو إلى الله وحده . واعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس ، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه ، فهو ناظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ

عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٣)

فالمراتب ثلاثة : أحسها أن تشكو الله إلى خلقه ، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه ، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه .

(٢) سورة النساء : الآية ٧٩ .

(١) سورة الشورى : الآية ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٦٥ .

قاعدة جليلة

«يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول»

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١)
فتضمنت هذه الآية أمورا، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا. فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل مادعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

قال مجاهد: «لما يحييكم» يعنى للحق. وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدى: هو الإسلام أحياءهم بعد موتهم بالكفر. وقال ابن اسحق وعروة بن الزبير: واللفظ له «لما يحييكم» يعنى للحرب التى أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وكل هذه عبارات عن حقيقة واحدة وهى القيام بما جاء به الرسول ظاهرا وباطنا. قال الواحدى والأكثرون على أن معنى قوله «لما يحييكم» هو الجهاد، وهو قول ابن اسحق واختيار أكثر أهل المعانى. قال الفراء: إذا دعاكم إلى أحياء أمركم بجهاد عدوكم يريد إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم.

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

قلت : الجهاد من أعظم ما يحييهم به فى الدنيا وفى البرزخ (١) وفى الآخرة . أما فى الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد . وأما فى البرزخ فقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٢)

وأما فى الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم . ولهذا قال ابن قتبية : « لما يحييكم » يعنى الشهادة . وقال بعض المفسرين : « لما يحييكم » يعنى الجنة . فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة . حكاه أبو على الجرجاني .

والآية تتناول هذا كله ، فإن الايمان والاسلام والقرآن والجهاد تحيى القلوب الحياة الطيبة . وكمال الحياة فى الجنة ، والرسول داع إلى الايمان وإلى الجنة ، فهو داع إلى الحياة الدنيا والآخرة . والانسان مضطر إلى نوعين من الحياة : حياة بدنه التى بها يدرك النافع والضار ويؤثر ماينفعه على ما يضره . ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك . ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك . وحياة قلبه وروحه التى بها يميز بين الحق والباطل والغى والرشاد والهوى والضلال ، فيختار الحق على ضده . فتفيد هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار فى العلوم والارادات والأعمال . وتنفيذ قوة الايمان والارادة والحب للحق ، وقوة البغض والكراهة للباطل .

(١) البرزخ : أى ما بين الدنيا والآخرة ، قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث . فن مات فقد دخل البرزخ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

فشعوره وتمييزه وحبّه ونفرتّه بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحى يكون شعوره واحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرتّه عن المؤلم أعظم. فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب. فإذا بطلت حياته بطل تمييزه. وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك، الذى هو رسول الله، من روحه، فيصير حيا بذلك النفخ. وكان قبل ذلك من جملة الأموات. وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الروح الذى ألقى إليه، قال تعالى:

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ ﴾ (١)

وقال: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ ﴾ (٢)

وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا أَلِيْمُنُّ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٣)

فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكى، فن أصابه نفخ الرسول الملكى، ونفخ الرسول البشرى حصلت له الحياتان، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى، قال تعالى:

﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن

(٢) سورة غافر: الآية ١٥.

(١) سورة النحل: الآية ٢.

(٣) سورة الشورى: الآية ٥٢.

مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴿١﴾

فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافرا ضالا فهديناه.

وجعلنا له نورا

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (٢)

يتضمن أمورا: أحدها: أنه يمشى في الناس بالنور وهم في الظلمة، فثله ومثلهم كمثله قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشى به في الطريق ويراه ويرى ما يحذره فيها. وثانيها: أنه يمشى فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور. وثالثها: أنه يمشى بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

الله يحول بين المرء وقلبه

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (٣)

المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجهور المفسرين.

وفي الآية قول آخر أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتاده، وكان هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه.

(١)، (٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢. (٣) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

وعلى القول الأول، فوجه المناسبة أنكم إن ثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون قوله :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَّتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ (٣)

ففى الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح .
وفى الآية سر آخر وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به ، وهو الاستجابة ، وبين القدر والإيمان به ، فهى كقوله :

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤)

وقوله : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٥)
والله أعلم .

فائدة جليلة

كتب عليكم القتال

قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة الأنعام : الآية ١١٠ . | (٢) سورة الصف : الآية ٥ . |
| (٣) سورة الأعراف : الآية ١٠١ . | (٤) سورة التكاوير : الآية ٢٨ - ٢٩ . |
| (٥) سورة المائدة : الآية ٥٥ - ٥٦ . | |

شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكَ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢)

فالآية الأولى فى الجهاد الذى هو كمال القوة الغضبية . والثانية فى النكاح الذى هو كمال القوة الشهوانية . فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه ، وهذا المكروه خير له فى معاشه ومعاده ، ويجب المودة والتاركة ، وهذا المحبوب شر له فى معاشه ومعاده .

وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله فى امساكها خير كثير لا يعرفه . ويجب المرأة لوصف من أوصافها وله فى امساكها شر كثير لا يعرفه . فالإنسان كما وصفه به خالقه «ظلم جهول» ، فلا ينبغى أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وجهه ونفرتة وبغضه ، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه .

فانفع الأشياء له على الاطلاق طاعة ربه بظاھر وباطنه ، وأضر الأشياء عليه على الاطلاق معصيته بظاھر وباطنه ، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصا له فكل ما يجرى عليه مما يكرهه يكون خيرا له ، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له . فنصحت له معرفة ربه والفقه فى أسمائه وصفاته ، علم يقينا أن المكروهات التى تصيبه والمحن التى تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التى لا يحصيها علمه ولا فكرته ، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب .

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦ .

(٢) سورة النساء: الآية ١٩ .

لو عرف العبد الحقيقة

فعامة مصالح النفوس فى مكروهااتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها فى محبوباتها. فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غرس جنة وتعاهد بها بالسقى والاصلاح حتى أثمرت أشجارها، فأقبل عليها يفصل أوصالها، ويقطع أغصانها لعله أنها لو خليت على حالها لم تطب ثمرتها، فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلمها ويقطع أغصانها الضعيفة التى تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكماها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك. ثم لا يدعها ودواعى طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطشها وقتا ويسقيها وقتا، ولا يترك الماء عليها دائما وان كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلى تلك الزينة التى زينت بها من الأوراق فيلقى عنها كثيرا منها، لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما فى شجر العنب ونحوه. فهو يقطع أعضائها بالحديد ويلقى عنها كثيرا من زينتها، وذلك عين مصلحتها. فلو أنها ذات تمييز وادراك كالحیوان، لتوهمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وأنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته فى اخراج الدم الفاسد عنه، بضع جلده (١) وقطع عروقه وأذاقه الألم الشديد. وإن رأى شفاؤه فى قطع عضو من أعضائه أبانه عنه (٢)، كل ذلك رحمة به وشفقة عليه. وإن رأى مصلحته فى أن يمكك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه، لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساد هلاكه. وكذلك يمنعه كثيرا من شهواته حمية له ومصلحة لا بخلا عليه.

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين، الذى هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان

(١) بضع جلده: شقه.

(٢) أبانه عنه: قطعه.

خيرا لهم من الا ينزله بهم ، نظرا منه لهم واحسانا إليهم ولطفاً بهم ، ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علما واردة وعملا ، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته ، أحبوا أم كرهوا ، فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته ، فنازعوه تدبيره وقدحوا فى حكمته ولم ينقادوا لحكمه ، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة ، فلا لربهم عرفوا ولا لمصالحهم حصلوا ، والله الموفق .

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن فى الدنيا قبل الآخرة فى جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة ، فإنه لا يزال راضيا عن ربه ، والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين ، فإنه طيب النفس بما يجرى عليها من المقادير التى هى عين اختيار الله له وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية ، وهذا هو الرضا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا . وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك . وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره ، فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى . فقضاء الرب سبحانه فى عبده دأثر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة ، لا يخرج عن ذلك البتة كما قال صلى الله عليه وسلم فى الدعاء المشهور : « اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدرى وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى . ما قالها أحد قط إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجا . قالوا : أفلا نتعلمهن يا رسول الله ؟ قال : بلى ! ينبغي لمن يسمعهن أن يتعلمهن » (١) .

(١) للاستزادة ، راجع مسند الإمام أحمد .

والمقصود قوله : «عدل فى قضاؤك» ، وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده ، من عقوبة أو ألم وسبب ذلك ، فهو الذى قضى بالسبب وقضى بالمسبب . وهو عدل فى هذا القضاء . وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن» . قال العلامة ابن القيم : فسألت شيخنا : هل يدخل فى ذلك قضاء الذنب ؟ فقال : نعم بشرطه ، فأجمل فى لفظه «بشرطه» ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك .

فائدة

الزهد فى الدنيا

لا تتم الرغبة فى الآخرة إلا بالزهد فى الدنيا ، ولا يستقيم الزهد فى الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين :

النظر الأول : النظر فى الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها ، وما فى ذلك من الغصص والنغص والانكداد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف ، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها وهم فى حال الظفر بها وغم وحزن بعد فواتها ، فهذا أحد النظرين .

النظر الثانى : النظر فى الآخرة واقبالها وبجها ولا بد ، ودوامها وبقائها ، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذى بينه وبين ما ههنا . فهى كما قال سبحانه :

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (١)

(١) سورة الأعلى : الآية ١٧ .

فهى خيرات كاملة دائمة ، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة . فإذا تم له هذان النظران أثر ما يقتضى العقل ايثاره وزهد فيما يقتضى الزهد فيه . فكل أحد مطبوع على الا يتسرك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة ، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته فى الأعلى الأفضل . فإذا أثر الفانى الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له وإما لعدم رغبته فى الأفضل .

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الايمان وضعف العقل والبصيرة . فإن الراغب فى الدنيا الحريص عليها المؤثر لها اما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى ، واما الا يصدق ، فإن لم يصدق بذلك كان عادما للإيمان رأسا ، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سبيء الاختيار لنفسه .

وهذا تقسيم حاضر ضرورى لا ينفك العبد من أحد القسمين منه ، فإيثار الدنيا على الآخرة اما من فساد فى الايمان ، واما من فساد فى العقل . وما أكثر ما يكون منها ، ولهذا نبذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم ، وأطرحوها ولم يألفوها ، وهجروها ولم يميلوا إليها ، وعدوها سجننا لاجنة . فزهّدوا فيها حقيقة الزهد ، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب ولوصلوا منها إلى كل مرغوب . فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردّها ، وفاضت على صحابه فأثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها ، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر ، وأنها دار عبور لا دار سرور ، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل ، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : «مالى وللدنيا ، إنما أنا كراكب قال (١) فى ظل شجرة ، ثم راح وتركها» . وقال : «ما الدنيا فى الآخرة

(١) قال : من القبلولة ، وهى نومة منتصف النهار . والحديث رواه ابن ماجة فى كتاب الزهد وأبو داود

وابن حنبل .

إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فليُنظر بـم ترجع» (١). وقال خالقها سبحانه :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرًا أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنْتَهَا أَمَرْنَا لَيلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢)

فاخبر عن خسة الدنيا وزهد فيها ، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها .

وقال تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَلًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ

(١) روى بالفاظ مختلفة . راجع البخارى (الرقاق) ، ومسلم (الجنة) ، وابن ماجة (الترومذى (الزهد) .

(٢) سورة يونس : الآية ٢٤ - ٢٥ . (٣) سورة الكهف : الآية ٤٥ - ٤٦ .

اللَّهُ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ * قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرِ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢﴾

وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٣﴾

وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضى بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤﴾

وعبر سبحانه من رضى بالدنيا من المؤمنين، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٥﴾

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤ - ١٥.

(٤) سورة يونس: الآية ٧ - ٨.

(١) سورة الحديد: الآية ٢٠.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٦.

(٥) سورة التوبة: الآية ٣٨.

وعلى قدر رغبة العبد فى الدنيا ورضاه بها يكون ثقاقله عن طاعة الله
وطلب الآخرة، ويكفى فى الزهد فى الدنيا قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ (١)

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ
بَيْنَهُمْ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ نَّهَارٍ بَلَّغٌ
فَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ
ذِكْرِنَهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا *
كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤)

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٥)

وقوله: ﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
فَسْأَلِ الْعَادِينَ * قُلْ إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَخْفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٠٥ - ٢٠٧ .
(٢) سورة يونس: الآية ٤٥ .
(٣) سورة الأحقاف: الآية ٣٥ .
(٤) سورة النازعات: الآية ٤٢ - ٤٦ .
(٥) سورة الروم: الآية ٥٥ .
(٦) سورة المؤمنون: الآية ١١٢ - ١١٤ .

طَرِيقَةٌ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١﴾
والله المستعان وعليه التكلان .

قاعدة

أساس الخير

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .
فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن
لا يقطعها عنك ، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته ، فتبتل إليه أن يحول
بينك وبينها ، ولا يكللك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك .
وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد ، وكل شر
فأصله خذلانه لعبد . وأجمعوا أن التوفيق الا يكللك الله إلى نفسك ،
وأن الخذلان هو أن يخلى بينك وبين نفسك ، فإذا كان كل خير فأصله
التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد ، ففتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ
والرغبة والرغبة إليه . فتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح
له ، ومتى أضله عن المفتاح بقى باب الخير مرتجا دونه .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : «إني لأحمل هم الاجابة ،
ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الاجابة معه» . وعلى قدر نية
العبد وهمته ومراده ورغبته فى ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانتة . فالمعونة
من الله تنزل على العباد على قدر همهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم ،
والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك ، فالله سبحانه أحكم الحاكمين
وأعلم العالمين ، يضع التوفيق فى مواضعه اللائقة به والخذلان فى مواضعه
اللائقة به ، وهو العليم الحكيم ، وماأتى من أتى إلا من قبل اضاءة
الشكر واهمال الافتقار والدعاء ، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا

(١) سورة طه : الآية ١٠٢ - ١٠٤ .

بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء . وملاك ذلك الصبر فإنه من
الايان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد .

قسوة القلب وصفائه :

ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله . خلقت
النار لإذابة القلوب القاسية . أبعد القلوب من الله القلب القاسى . إذا
قسا القلب قحطت العين . قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر
الحاجة : الأكل والنوم والكلام والمخالطة . كما أن البدن إذا مرض لم
ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنفع
فيه المواعظ .

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهواته . القلوب المتعلقة
بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها . القلوب آتية الله فى أرضه ،
فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها . شغلوا قلوبهم بالدنيا ، ولو شغلوها
بالله والدار الآخرة لجالت فى معانى كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى
أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفرائد . إذا غذى القلب بالتذكر وسقى
بالتفكير ونقى من الدغل (١) ، رأى العجائب وألهم الحكمة . ليس كل
من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها ، بل أهل المعرفة
والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى . وأما من قتل قلبه فأحى
الهوى ، فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه .

خراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الخشية والتذكر .

إذا زهدت القلوب فى موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين
أهل تلك الدعوة ، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد .

الشوق إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا .

(١) أى الفساد .

من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح ، ومن أرسله فى الناس اضطرب واشتد به القلق .

لا تدخل محبة الله فى قلب فيه حب الدنيا الا كما يدخل الجمل فى سم الأبرة .

إذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه واجتباها لمحبتة واستخلصه لعبادته ، فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته .

القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاءه فى التوبة والحمية ، ويصدأ كما تصدأ المرأة وجلأؤه بالذكر ، ويعزى كما يعزى الجسم وزينته التقوى ، ويجوع ويظماً كما يجوع البدن ، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والانابة والخدمة .

حكم متفرقة :

* إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ما سواه ولا بد لك منه .

* من ترك الاختيار والتدبير فى طلب زيادة دنيا أو جاه أو فى خوف نقصان أو فى التخلص من عدو ، توكل على الله وثقة بتدبيره له وحسن اختياره له ، فألقى كنفه بين يديه وسلم الأمر اليه ورضى بما يقضيه له ، استراح من الهموم والغموم والأحزان . ومن أبى الا تدبيره لنفسه وقع فى النكد والنصب وسوء الحال والتعب ، فلا عيش يصفو ولا قلب يفرج ولا عمل يزكو ولا أمل يقوم ولا راحة تدوم ، والله سبحانه سهل لخلق السبيل اليه وحجهم عنه بالتدبير ، فمن رضى بتدبير الله له وسكن إلى اختياره وسلم لحكمه أزال ذلك الحجاب ، فأفضى القلب إلى ربه وأطمأن اليه وسكن .

* المتوكل لا يسأل غير الله ولا يرد على الله ولا يدخر مع الله .

* من شغل بنفسه شغل عن غيره ، ومن شغل بربه شغل عن نفسه .
* الاخلاص هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه ولا عدو فيفسده ولا يعجب به صاحبه فيبطله .

* الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام .

* الناس فى الدنيا معذبون على قدر همهم بها .

* للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها ، ثلاثة سافلة وثلاثة عالية ، فالسافلة : دنيا تتزين له ، ونفس تحدثه ، وعدو يوسوس له . فهذه مواطن الأرواح السافلة التى لا تزال تجول فيها . والثلاثة العالية : علم يتبين له ، وعقل يرشده ، واله يعبده . والقلوب جواله فى هذه المواطن .

* اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد ، فان اتباع الهوى يعمى عن الحق معرفة وقصداً ، وطول الأمل ينسى الآخرة ويصد عن الاستعداد لها .

* لا يشم عبد رائحة الصدق ويدهان نفسه أو يدهان غيره .

* إذا أراد الله بعبد خيراً جعله معترفاً بذنبه ممسكاً عن ذنب غيره ، جواداً بما عنده زاهداً فيما عند غيره محتملاً لأذى غيره ، وان أراد به شراً عكس ذلك عليه .

* المهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء : تعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة ، وملاحظة لمئة تزداد بملاحظتها شكراً وطاعة ، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية . فإذا تعلق المهمة بسوى هذه الثلاثة جالت فى أودية الوسواس والخطرات .

* من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها

وعبيدها وأذلت. ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له .

* إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فتى يصل إلى مقصده ؟ .

فائدة جلية

العالم الذى لا يعمل بعلمه

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلا بد أن يقول على الله غير الحق فى فتواه وحكمه ، فى خبره وألزامه ، لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ، ولا سيما أهل الرياسة . والذين يتبعون الشهوات فانهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً ، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاذه من الحق ، ولا سيما إذا قامت له (١) شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى ، فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق . وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال : لى مخرج بالتوبة . وفى هؤلاء وأشباههم قال تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ (٢) .
وقال تعالى فيهم أيضاً :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوهُ أَلَّا يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْ عَرَضٍ هَذَا الْأَدْنَى ﴾

(٢) سورة مريم : الآية ٥٩ .

(١) أى لكل من آثر الدنيا .

الْكُتُبِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا
سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذه فهم مصرون على ذلك،
وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا
حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك أو
لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟ فتارة يقولون على الله ما
لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا
يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة. وطريق
ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا
فى الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها. وهؤلاء لا بد أن
يستدعوا فى الدين مع الفجور فى العمل فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع
الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه فيرى
البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا أثروا الدنيا واتبعوا
الرياسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله:

﴿وَأَنْزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ
مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ (٢)

فهذا مثل عالم السوء الذى يعمل بخلاف عمله.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه:

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٥-١٧٦.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٩.

أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الايمان عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الايمان مفارقة من لا يعود اليه أبداً، فانه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقى معه منه شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: «فأتبعه الشيطان»، ولم يقل تبعه، فان فى معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.

ورابعها: انه غوى بعد الرشد. والغى: الضلال فى العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد. فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وان اقتربنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه أختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اخيتاره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن اخلاذ إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الاخلاذ اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة.

بأبناء حى من قبائل مالك وعمر بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع .

وثامنها : أنه رغب عن هداه واتبع هواه ، فجعل هواه اماماً له يقتدى به ويتبعه .

وتاسعها : أنه شبه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة وأسقطها نفساً وأبخلها وأشدّها كلباً ولهذا سمى كلباً .

وعاشرها : أنه شبه لهته على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد ، وهكذا .. هذا ان ترك فهو لهثان على الدنيا ، وأن وعظ وزجر فهو كذلك . فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب .

قال ابن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من اعياء أو عطش إلا الكلب فانه يلهث في جال الكلال (١) وحال الراحة ، وحال الرى وحال العطش ، فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال : ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال كالكلب ان طردته لهث وان تركته على حاله لهث . وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث ، وذلك أخس ما يكون وأشنع .

فائدة

العابد الجاهل والعالم الفاجر

فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة ، وأما العابد الجاهل فآفته من اعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجدته وما تهواه

(١) الكلال : التعب .

نفسه . ولهذا قال سفيان بن عيينة ^(١) وغيره : أخطرنا فتنه العالم الفاجر وفتنة العابد الجاهل ، فان فتنتها فتنة لكل مفتون ، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجه ، وذاك بغيه يدعو إلى الفجور .

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٢) ،

وقصته معروفة ، فانه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل ، فأوقعه الشيطان بجهله وكفره بجهله . فهذا امام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري ، وذاك امام كل عالم فاجر ، يختار الدنيا على الآخرة .

وقد جعل سبحانه رضا العبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه ولا يجتمع هذان ، أغنى الرضا بالدنيا والغفلة عن آيات الرب الا فى قلب من لا يؤمن بالمعاد ولا يرجو لقاء رب العباد ، وإلا فلورسخ قدمه فى الايمان بالمعاد لما رضى الدنيا ولا اطمأن اليها ولا أعرض عن آيات الله .

وأنت إذا تأملت أحوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس وهم عمار الدنيا . وأقل الناس عدداً من هو على خلاف ذلك وهو من أشد الناس غربة بينهم لهم شأن وله شأن ، علمه غير علومهم وارادته غير ارادتهم وطريقه غير طريقهم ، فهو فى واد وهم فى واد ، قال تعالى :

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى ، من الموالى . ولد بالكوفة سنة (١٠٧ هـ = ٧٢٥ م) وسكن مكة وحدث فى حرمها . نوفى سنة (١٩٨ هـ = ٨١٤ م) . وله « الجامع » فى الحديث ، وكتاب فى التفسير .

(٢) سورة الحشر: الآية ١٦ - ١٧ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَبِيزَةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١).

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَتِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٢).

فهؤلاء ايمانهم بقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة اليها ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الايمان بالمعاد وتلك مواريث عدم الايمان به والغفلة عنه.

فائدة عظيمة

أفضل ما تكتسبه النفوس

أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة هو العلم والايمان، ولهذا قرن بينها سبحانه في قوله:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ (٣)،

وقوله: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٤)، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والايمان اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتها. حتى أن كل طائفة تظن أن مامعها من العلم

(٢) سورة يونس: الآية ٩.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١١.

(١) سورة يونس: الآية ٧-٨.

(٣) سورة الروم: الآية ٥٦.

والإيمان هو هذا الذى به تنال السعادة، وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجى ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا اليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوه على مناجهم وآثارهم.

علوم ضارة:

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت به:

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (١)،

وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام كما قال حماد بن زيد (٢): قلت لأبيوب (٣) العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم فقال: الكلام اليوم أكثر والعلم فيما تقدم أكثر!.

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام. فالكاتب كثيرة جداً والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمغزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه، قال تعالى:

﴿ مَن حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (٤).

وقال: ﴿ وَلَئِن أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (٥).

وقال فى القرآن: (أنزله بعلمه) أى وفيه علمه.

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٣.

(٢) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدى الجهضمى، أبو إسما عيل، البصرى الأذرق، مولى آل جرير بن حازم، شيخ العراق فى عصره، ومن حفاظ الحديث، يحفظ أربعة آلاف حديث، وهو من أقران ابن عيينة، روى عنه ابن المبارك. وقد توفى سنة (١٧٩ هـ = ٧٩٥ م).

(٣) هو أبيوب بن أبى تميمة كيسان السخنيانى، أبو بكر البصرى، رأى أنس بن مالك وروى عن نافع بن عاصم وعطاء وغيرهما. كان سيد الفقهاء فى البصرة، ومن أشد الناس اتباعاً للسنة، مات سنة ١٣١ هـ.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦١. (٥) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علماً، ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان وملأوا بها الصحف مداداً، والقلوب سواداً، حتى صرح كثير من الناس منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم، وأن أدلتها لفظية لا تفيد يقيناً ولا علماً. وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم وأذن بها بين أظهرهم حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والايان كانسلاخ الحية من قشرها، والثوب عن لابسه.

قال الامام العلامة شمس الدين ابن القيم: ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع تلاميذ هؤلاء أنه رآه يشتغل في بعض كتبهم ولم يحفظ القرآن، فقال له: لو حفظت القرآن أولاً كان أولى، فقال: وهل في القرآن علم! قال ابن القيم: وقال لي بعض أئمة هؤلاء: إنما نسمع الحديث لأجل البركة لا لنستفيد منه العلم لأن غيرنا قد كفانا هذه المؤنة فعمدنا على ما فهموه وقرروه، ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

قال: وقال لي شيخنا مرة في وصف هؤلاء: أنهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأخس المطالب، ويكفيك دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله، ما ترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض، قال تعالى:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١)،

وهذا يدل على أن ما كان من عنده سبحانه لا يختلف، وإن ما اختلف

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

وتناقض فليس من عنده، وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار ديناً يَدان به ويحكم به على الله ورسوله، سبحانه هذا بهتان عظيم .

وقد كان علم الصحابة الذى يتذكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين كما حكم الحاكم فى ترجمة أبى عبد الله البخارى، قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا إنما يتذكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، ليس بينهم رأى ولا قياس . ولقد أحسن القائل :

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتقوية
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأى فقيهه
كلا ولا جحد الصفات ونفيها حذراً من التمثيل والتشبيه

فصل

الايان والاختلاف فيه

وأما الايمان فأكثر الناس، أو كلهم، يدعونه «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين»، وأكثر المؤمنين إنما عندهم ايمان مجمل، وأما الايمان المفصل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة وعلماً وإقراراً ومحبة ومعرفة بضده وكراهيته، فهذا ايمان خواص الأمة وخاصة الرسول، وهو ايمان الصديق وحزبه .

وكثير من الناس حظهم من الايمان الاقرار بوجود الصانع وأنه وحده هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما، وهذا لم يكن ينكره عباد الأصنام من قريش ونحوهم .

وآخرون الايمان عندهم هو التكلم بالشهادتين، سواء كان معه عمل أو لم يكن وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه .

وآخرون عندهم الايمان مجرد تصديق بأن الله سبحانه خالق السموات والأرض وأن محمداً عبده ورسوله وإن لم يقر بلسانه ولم يعمل شيئاً ، بل ولو سب الله ورسوله وأتى بكل عظمة ، وهو يعتقد وحدانية الله ونبوة رسوله فهو مؤمن .

وآخرون عندهم الايمان هو جحد صفات الرب تعالى من علوه على عرشه وتكلمه بكلماته وكتبه وسمعه وبصره ومشيتته وقدرته وارادته وحبه وبغضه ، وغير ذلك مما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله . فالايان عندهم انكار حقائق ذلك كله وجحده والوقوف مع ما تقتضيه آراء المتوكلين وأفكار المخربين (١) الذين يرد بعضهم على بعض وينقض بعضهم قول بعض ، الذين هم كما قال عمر بن الخطاب والامام أحد : مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مفارقة الكتاب .

وآخرون عندهم الايمان عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم (٢) وما تهواه نفوسهم من غير تقييد بما جاء به الرسول .

وآخرون الايمان عندهم ما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم بحكم الاتفاق كائناً ما كان ، بل ايمانهم مبنى على مقدمتين :
إحدهما : أن هذا قول أسلافنا وآبائنا .
والثانية : أن ما قالوه فهو الحق .

وآخرون عندهم الايمان مكارم الأخلاق وحسن المعاملة وطلاقة الوجه واحسان الظن بكل أحد وتخلية الناس وغفلاتهم .

وآخرون عندهم الإيمان التجرد من الدنيا وعلائقها وتفرغ القلب منها والزهد فيها . فإذا رأوا رجلاً هكذا جعلوه من سادات أهل الإيمان ، وإن

(١) المتوكلون : جمع متوكل . وهو المتحيز . والمخرب : المكذب أو المنشك .

(٢) ربما كان المقصود بمواجيدهم ما يحبونه .

كان منسلخاً من الإيمان علماً وعملاً. وأعلى من هؤلاء من جعل الإيمان هو مجرد العلم وان لم يقارنه عمل .

وكل هؤلاء لم يعرفوا حقيقة الإيمان ولا قاموا به ولا قام بهم ، وهم أنواع : منهم من جعل الإيمان ما يضاد الإيمان ، ومنهم من جعل الإيمان ما لا يعتبر في الإيمان ، ومنهم من جعله ما هو شرط فيه ولا يكفى في حصوله ، ومنهم من اشتراط في ثبوته ما يناقضه . ويضاده ، ومنهم من اشتراط فيه ما ليس منه بوجه .

والإيمان وراء ذلك كله ، وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً ، وتنفيذه والدعوة اليه بحسب الإمكان . وكماله في الحب في الله والبغض في الله ، والعطاء لله والمنع لله ، وأن يكون الله وحده الهه ومعبوده . والطريق اليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله ، وبالله التوفيق .

من اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه ، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن اشتغل بنفسه عن الله وكله الله إلى نفسه ، ومن اشتغل بالناس عن الله وكله الله اليهم .

فائدة جلية

أصول السعادة

إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد (١) من تركها لغير الله . أما من تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله فانه لا يجد في تركها مشقة إلا

(١) العوائد : جمع عادة .

فى أول وهلة يمتحن أصادق هو فى تركها أم كاذب ، فان صبر على تلك المشقة قليلاً استحالت لذة. قال ابن سيرين : سمعت شريحاً يحلف بالله ما ترك عبد الله شيئاً فوجد فقده . وقولهم : من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه حق ، والعوض أنواع مختلفة ، واجل مايعوض به الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى .

أغشى الناس من ضل فى آخر سفره وقد قارب المنزل :

العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الموافق للعقل والحكمة . والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع .

أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها فى الظاهر والباطن ودوام الافتقار إلى الله وإرادته وجهه وحده بالأقوال والأفعال ، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها .

الأصول التى تنبنى عليها سعادة العبد ثلاثة ، ولكل واحد منها ضد ، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده : التوحيد وضده الشرك ، والسنة وضدها البدعة ، والطاعة وضدها المعصية . ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة فى الله وفيما عنده ومن الرهبة منه ومما عنده .

قاعدة جلية

أهل الهدى وأهل الضلال

قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١)

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٥ .

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ﴾ (١) الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴿﴾ (٢) الآية.

والله تعالى قد بين فى كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه هؤلاء وتوفيقه هؤلاء، والأسباب التى وفق بها هؤلاء والأسباب التى خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين فى كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينها غاية البيان حتى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبان لهم السيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فأنهم نشأوا فى سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغى إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس فى التوحيد

(١) انظر ما قاله المؤلف فى تفسير المشاقة، ص ١١٤.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٥.

والإيمان والإسلام وأبغض الناس فى ضده ، عاملين بالسبيل على التفصيل .

تفضيل :

وأما من جاء بعد الصحابة ، فمنهم من نشأ فى الإسلام غير عالم بتفضيل ضده فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين ، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر ابن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية ، وهذا من كمال علم عمر رضى الله عنه ، فانه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فانه من الجاهلية ، فإنها منسوبة إلى الجهل ، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل .

فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستب له أو شك أن يظن فى بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين ، كما وقع فى هذه الآية من أمور كثيرة فى باب الاعتقاد والعلم والعمل هى من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل ، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم فى سبيل المؤمنين ودعا إليه وكفر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفر من خالفها .

والناس فى هذا الموضع أربع فرق :

الفرقة الأولى : من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفضيل علماً وعملاً ، وهؤلاء أعلم الخلق .

الفرقة الثانية : من عميت عنه السيلاان من أشباه الأنعام . وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك .

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوره على التفضيل، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى، فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدون على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيها أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: إن الذي تشتهى نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرنا وحذر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولا شكاً، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها، أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه. فإنه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسروراً به، فيقوى إيمانه به. كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرت به فرغب عنها إلى ضدها ازداد محبة لضدها ورغبة فيه وطلباً له وحرصاً عليه، فابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى. فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها، صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالی الدائم، فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك، فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطالبين فرق عظيم. ألا ترى أن من

مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم من مشى إليه راكباً على النجائب^(١) فليس من أثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن أثره مع عدم منازعتها إلى غيره، فهو سبحانه يبتلى عبده بالشهوات، أما حاجباً له عنه، أو حاجباً له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير من اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له فى بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً. وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملًا غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره فى تصرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يجب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يجب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك. وفى هذه المعرفة من القوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتنائها لآثارها وموجباتها. وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه والهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه، والله أعلم.

أرباب الحوائج على باب الملك يسألون قضاء حوائجهم، وأولياؤه المحبون له الذين هو همهم ومرادهم جلساؤه وخواصه، فإذا أراد قضاء حاجة واحد من أولئك أذن لبعض جلسائه وخاصته أن يشفع فيه رحمة له وكرامة للشافع، وسائر الناس مطرودون عن الباب مضروبون بسياط البعد.

(١) نجائب الإبل: خيارها.

فصل

عشرة لا ينتفع بها

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا اخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدّمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل من طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتنال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع، وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير في قبضته ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأعظم هذه الاضاعات اضعاتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب وإضاعة الوقت، فإضاعة القلب من ايثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان.

العجيب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والاعراض وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته.

فصل

حق العبودية

لله سبحانه على عبده أمر أمره به، وقضاء يقضيه عليه، ونعمة ينعم بها عليه فلا ينفك من هذه الثلاثة. والقضاء نوعان: إما مصائب وإما

معايب، وله عليه عبودية فى هذه المراتب كلها، فأحب الخلق إليه من عرف عبوديته فى هذه المراتب ووفأها حقها، فهذا أقرب الخلق إليه. وأبعدهم منه من جهل عبوديته فى هذه المراتب فعملها علماً وعملاً. فعبوديته فى الأمر امتثاله إخلاصاً واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وفى النهى اجتنابه خوفاً منه وإجلالاً ومحبة. وعبوديته فى قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضا بها وهو أعلى منه، ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا، وهذا إنما يتأتى منه إذا تمكن حبه من قلبه وعلم حسن اختياره له وبره به ولطفه به وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة.

وعبوديته فى قضاء المعاييب المبادرة إلى التوبة منها والتوصل، والوقوف فى مقام الاعتذار والانكسار، عالماً بأنه لا يرفعها عنه إلا هو، ولا يقيه شرها سواه، وأنها إن استمرت أبعدته من قربه وطرده من بابه، فيراها من الضر الذى لا يكشفه غيره، حتى أنه ليرأها أعظم من ضر البدن.

فهو عائد برضاه من سخطه، وبعفوه من عقوبته، وبه منه مستجير، وملتجئ منه إليه، يعلم أنه إذا تخلى عنه وخلق بينه وبين نفسه فعنده أمثالها وشر منها، وأنه لا سبيل له إلى الإقلاع والتوبة إلا بتوفيقه وإعانتة، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد، فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتى بمِرْضاة سيده بدون إذنه ومشيتة وإعانتة، فهو ملتجئ إليه متضرع ذليل مسكين، ملق نفسه بين يديه طريح بابه مستخذ له، أذل شئ وأكسره له وأفقره وأحوجه إليه وأرغبه فيه وأحبه له، ببدنه متصرف فى أشغاله، وقلبه ساجد بين يديه، يعلم يقيناً أنه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه، وأن الخير كله لله وفى يديه وبه ومنه، فهو ولى نعمته، ومبتدئه بها من غير استحقاق ومجرها عليه مع تمقته إليه باعراضه وغفلته ومعصيته، فحظه سبحانه الحمد والشكر والثناء، وحظ

العبد الذم والنقص والعيب، قد استأثر بالمحمد والمدح والثناء، وولى العبد الملامة والنقائص والعيوب، فالحمد كله له والخير كله فى يديه، والفضل كله له والثناء له والمنة كلها له، فنه الإحسان ومن العبد الإساءة، ومنه التودد إلى العبد بنعمه ومن العبد التبغض إليه بمعاصيه، ومنه النصح لعبده ومن العبد الغش له فى معاملته.

وأما عبودية النعم فعرفتها والاعتراف بها أولاً: ثم العياذ به أن يقع فى قلبه نسبته واضافتها إلى سواه. وان كان سبباً من الأسباب فهو مسببه ومقيمه، فالنعمه منه وحده بكل وجه واعتبار ثم الثناء بها عليه ومحبه عليها وشكره بأن يستعملها فى طاعته:

ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها، ويعلم أنها وصلت اليه من سيده من غير ثمن بذله فيها ولا وسيلة منه توسل بها إليه ولا استحقاق منه لها، وأنها لله فى الحقيقة لا للعبد فلا تزيده النعم إلا انكساراً وذلاً وتواضعاً ومحبة للمنعم. وكلما جدد له نعمه أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعاً وذلاً، وكلما أحدث له قبضاً أحدث له رضا، وكلما أحدث ذنباً أحدث له توبة وانكساراً واعتذاراً. فهذا هو العبد الكيس، والعاجز بمعزل عن ذلك، وبالله التوفيق.

فصل

حلاوة التوكل على الله

من ترك الاختيار والتدبير فى رجاء زيادة أو خوف نقصان أو طلب صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله على كل شىء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد

منه لنفسه ، وأرحم به منه بنفسه ، وأبر به منه بنفسه . وعلم من ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة ، فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر ، فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه ، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر ، له التصرف في عبده بكل ما يشاء ، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه ، فاستراح حينئذ من الهموم والأنكاد والحسرات ، وحمل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالى بحملها ولا يثقله ولا يكثرث بها ، فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه ، لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه وجعله وحده همه فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفرغ قلبه منها ، فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه . وإن أبى إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه ، دون حق ربه ، خلاه وما اختاره وولاه ما تولى ، فحضره الهم والغم والحزن والنكد والخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال ، فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ولا راحة يفوز بها ولا لذة يتهنى بها ، بل قد حيل بينه وبين مسرته وفرحه وقرّة عينه ، فهو يكدح في الدنيا كدح الوحش ولا يظفر منها بأمل ولا يتزود منها لمعاد ، والله سبحانه قد أمر العبد بأمر وضمن له ضماناً ، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والاخلاص والاجتهاد ، قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج ، فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده ، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به ، والكفاية لمن كان هو همه ومراده والمغفرة لمن استغفره وقضاء الحوائج لمن صدقه في طلبها ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه في فضله وجوده . فالظن الكيس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيقه لا بضمانه ، فإنه الوفي الصادق ، ومن أوفى بعهده من الله . فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه .

ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه ، والله المستعان .

قال بشر بن الحارث (١) : أهل الآخرة ثلاثة : عابد وزاهد وصديق ، فالعابد يعبد الله مع العلائق ، والزاهد يعبد على ترك العلائق ، والصديق يعبد على الرضا والموافقة ، إن أراه أخذ الدنيا أخذها وإن أراه تركها تركها .

المشاقة والمحادة :

إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة ، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها ، فإن المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شق ، والمحادة أن يكون في حد وهو في حد ، ولا تستسهل هذا فإن مبادئه تجر إلى غايته ، وقليله يدعو إلى كثيره ، وكن في الجانب الذي فيه الله ورسوله وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحد العواقب وأفضلها ، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته ، وأكثر الخلق إنما يكونون في الجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرغبة ، فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله ، بل يعلمه الناس ناقص العقل سييء الاختيار لنفسه ، وربما نسبوه إلى الجنون ، وذلك من موارد أعداء الرسل فإنهم نسبوه إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب والناس في شق وجانب آخر، ولكن من وطن نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه ، وإلى صبر تام على معادة من عاداه ولومة من لومه ، ولا يتم له

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان المعروف ببشر الحافي . كنيته أبونصر . وأصله من مرو . سكن بغداد ومات بها . كان عالماً ورعاً . قال يحيى بن أكرم : « قال لي المؤمنون : لم يبق في هذه الكورة أحد يستحي منه ، غير هذا الشيخ ، بشر بن الحارث » . وقد توفي سنة ٢٢٧ هـ .

ذلك إلا برغبة قوية فى الله والدار الآخرة، بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا وأثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك فى مبادئ الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشرته من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربه، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلاً، وذلك الألم لذة، فإن الرب شكور، فلا بد أن ينيقه لذة تحيظه إلى الله وإلى رسوله ويريه كرامة ذلك فيشتد به سروره وغبطته ويبتج به قلبه ويظفر بقوته وفرحه وسروره ويبقى من كان محارباً له — على ذلك — بين هائب له ومسلم له ومساعد وتارك، ويقوى جنده ويضعف جند العدو.

ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك فإن الله معك وأنت بعينه وكلايته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك. وأعظم الأعوان لك على هذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفرع، فتى تجردت منها هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائماً فى الجانب الذى فيه الله ورسوله، ومتى قام بك الطمع والفرع فلا تطمع فى هذا الأمر ولا تحدث نفسك به. فإن قلت: فبأى شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفرع؟ قلت: بالتوحيد والتوكل والثقة بالله وعلمك بأنه لا يأتى بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله ليس لأحد مع الله شيء.

نصيحة

كيف تصلح حالك

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته فى دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء بل من أقرب الطرق وأسهلها. وذلك أنك فى وقت بين

وقتین وهو فی الحقیقة عمرک، وهو وقتک الحاضر بین ما مضى وما
 یرتقبل، فالذى مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شىء لا
 تعب علیک فیه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب.
 وتمتنع فیا یرتقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة لیس هو عملاً
 بالجوارح یشق علیک معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تریح بدنك
 وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة، وما یرتقبل تصلحه بالامتناع
 والعزم والنية، ولیس للجوارح فی هذین نصب ولا تعب، ولكن الشأن
 فی عمرک وهو وقتك الذى بین الوقتین، فان أضعته أضعت سعادتك
 ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتین اللذین قبله وبعده بما ذکر نجوت
 وفزت بالراحة واللذة والنعم. وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده،
 فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً
 لیسعادتها. وفى هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهى والله أيامك
 الخالية التى تجمع فیا الزاد لمعادك، إما إلى الجنة واما إلى النار، فإن
 اتخذت إلیه سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر فى
 هذه الملة الیسيرة التى لانسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات
 والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة وأعقبك الألم العظیم الدائم
 الذى مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم
 الله والصبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجله.

فصل

علامة صحة الارادة

علامة صحة الارادة أن یكون هم المرید رضا ربه واستعدادا للقاءه
 وحزنه على وقت مر فى غیر مرضاته وأسفه على قربه والأنس به. وجماع
 ذلك أن یصبح ویسئ ولیس له هم غیره.

فصل

الزهد فى الدنيا

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله ، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله ، وإذا أنسوا بأحبائهم فاجعل أنسك بالله ، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة .

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان، فقال له رجل: انى أكثر البكاء، فقال: إنك ان تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت مدل^(١) بعملك، وان المدل لا يصعد عمله فوق رأسه، فقال: أوصنى، فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن فى الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيباً وإن أطعمت أطعمت طيباً وإن سقطت على شىء لم تكسره ولم تخدشه .

فصل

أقسام الزهد

الزهد أقسام: زهد فى الحرام وهو فرض عين . وزهد فى الشبهات وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت التحقت بالواجب، وان ضعفت كان مستحباً . وزهد فى الفضول . وزهد فيما لا يعنى من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره . وزهد فى الناس . وزهد فى النفس بحيث تهون عليه نفسه فى الله . وزهد جامع لذلك كله وهو الزهد فيما سوى الله، وفى كل ما شغلك عنه .

(١) أى منبسط .

وأفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحفظ. والفرق بينه وبين الورع أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة. والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع.

قال يحيى بن معاذ: عجيب من ثلاث: رجل يرأى بعمله مخلوقاً مثله ويترك أن يعمله لله، ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئاً، ورجل يرغب في صحبة المخلوقين ومودتهم، والله يدعوه إلى صحبته ومودته.

فائدة جليلة

مخالفة الأمر أعظم من عمل المنهى عنه

قال سهل بن عبد الله^(١): ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب المنهى، لأن آدم نهى عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه.

قلت: هذه مسألة عظيمة لها شأن وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهى، وذلك من وجوه عديدة:

أحدها: ما ذكره سهل من شأن آدم وعدو الله إبليس.

الثاني: أن ذنب ارتكاب المنهى مصدره في الغالب الشهوة والحاجة، وذنوب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ويدخلها من مات على التوحيد وإن زنى وسرق.

(١) يقصد - على الغالب - سهل بن عبد الله بن يونس التستري، وهو أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضيات، والأخلاص وعبود الأفعال. توفي سنة ٢٨٣ هـ. (طبقات الصوفية)

الثالث: ان فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهى، كما دل على ذلك النصوص كقوله صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها» (١) وقوله: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله»، وقوله: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة» (٢)، وغير ذلك من النصوص.

وترك المناهى عمل فانه كف النفس عن الفعل، ولهذا علق سبحانه المحبة بفعل الأوامر كقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ (٣)،
 ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤)،
 وقوله: ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٥)،
 ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٦).

وأما فى جانب المناهى فأكثر ما جاء النفى للمحبة كقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ﴾ (٧)،
 وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٨)،
 وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٩).

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان.

(٢) رواه ابن ماجة فى كتاب الأدب، الباب ٥٣. ورواه الترمذى: الدعوات/٦. والنسائى: الإيمان/١.

(٣) سورة الصف: الآية ٤.
 (٤) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.
 (٥) سورة الحجرات: الآية ٩.
 (٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.
 (٧) سورة البقرة: الآية ٢٠٥.
 (٨) سورة الحديد: الآية ٢٣.
 (٩) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ﴾ (١) ،
 وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٢) ونظائره .
 وأخبر فى موضع آخر أنه يكرهها ويسخطها ، كقوله :
 ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣) ،
 وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ﴾ (٤)

إذا عرّف هذا ففعل ما يحبه سبحانه مقصود بالذات . ولهذا يقدر ما يكرهه ويسخطه لافضائه إلى ما يحب ، كما قدر المعاصى والكفر والفسوق لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها من الجهاد واتخاذ الشهداء . وحصول التوبة من العبد والتضرع إليه والاستكانة وإظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزه . وحصول الموالاة والمعاداة لأجله ، وغير ذلك من الآثار التى وجودها بسبب تقديره ما يكره أحب إليه من ارتفاعها بارتفاع أسبابها ، وهو سبحانه لا يقدر ما يحب لافضائه إلى حصول ما يكرهه ويسخطه كما يقدر ما يكرهه لافضائه إلى ما يحبه ، فعلم أن ما يحبه أحب إليه مما يكرهه .

يوضحه الوجه الرابع: أن فعل المأمور مقصود لذاته وترك المنهى مقصود لتكميل فعل المأمور ، فهو منهى عنه لأجل كونه يحل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه ، كما نبه سبحانه على ذلك فى النهى عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة . فالمنهيات قواطع وموانع صادة عن فعل المأمورات أو عن كماها ، فالنهى عنها من باب المقصود لغيره ، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه .

(٢) سورة النساء: الآية ٣٦ .

(٤) سورة محمد: ٢٨ .

(١) سورة النساء: الآية ١٤٨ .

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٨ .

يوضحه الوجه الخامس: أن فعل المأمورات من باب حفظ الإيمان وبقائها وترك المنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال، وحفظ القوة مقدم على الحمية، فإن القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة، فالحمية مرده لغيره وهو حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها، ولهذا كلما قويت قوة الإيمان دفعت المواد الرديئة ومنعت من غلبتها وكثرتها بحسب القوة وضعفها، وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة، فتأمل هذا الوجه.

الوجه السادس: أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيئاً من ذلك، فانه لو ترك جميع المنهيات ولم يأت بالإيمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئاً وكان خالداً مخلداً في النار.

وهذا يتبين بالوجه السابع: أن من فعل المأمورات والمنهيات فهو إما ناج مطلقاً إن غلبت حسناته سيئاته، وإما ناج بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته فآله إلى النجاة وذلك بفعل المأمور.

ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناج ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد.

فإن قيل: فهو إما هلك بارتكاب المحذور وهو الشرك، قيل: يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به وإن لم يأت بضد وجودي من الشرك، بل متى خلا قلبه من التوحيد رأساً فلم يوحد الله فهو هالك وإن لم يعبد معه غيره، فإذا انضاف إليه عبادة غيره عذب على ترك التوحيد المأمور به وفعل الشرك المنهى عنه.

يوضحه الوجه الثامن: أن المدعو إلى الإيمان إذا قال: لا أصدق ولا أكذب ولا أحب ولا أبغض ولا أعبد ولا أعبد غيره، كان كافراً بمجرد الترك والإعراض، بخلاف ما إذا قال: أنا أصدق الرسول وأحبه وأؤمن

به وأفعل ما أمرنى، ولكن شهوتى واردة وطبعى حاكمة على لا تدعى
أترك ما نهانى عنه وأنا أعلم أنه قد نهانى وكره لى فعل المنهى ولكن لا
صبر لى عنه، فهذا لا يعد كافراً بذلك، ولا حكمه حكم الأول، فإن
هذا مطيع من وجه، وتارك المأمور جملة لا يعد مطيعاً بوجه.

يوضحه الوجه التاسع: أن الطاعة والمعصية إنما تتعلق بالأمر أصلاً
وبالنهى تبعاً، فالمطيع ممثل المأمور، والعاصى تارك المأمور، قال تعالى:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ (١)،

وقال موسى لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ
أَمْرِي﴾ (٢)،

وقال عمرو بن العاص عند موته: أنا الذى أمرتنى فعصيت، ولكن
لا إله إلا أنت. وقال الشاعر:

أمرتك أمراً جازماً فعصيتنى

والمقصود من ارسال الرسل طاعة الرسل ولا تحصل إلا بامثال
أوامره، واجتناب المناهى من تمام امثال الأوامر ولوازمه. ولهذا لو
اجتنب المناهى ولم يفعل ما أمر به لم يكن مطيعاً وكان عاصياً، بخلاف
ما لو أتى بالمأمورات وارتكب المناهى. فانه وان عد عاصياً مذنباً فانه
مطيع بامثال الأمر عاص بارتكاب النهى بخلاف تارك الأمر فانه لا يعد
مطيعاً باجتناب المنهيات خاصة.

الوجه العاشر: أن امثال الأمر عبودية وتقرب وخدمة، وتلك العبادة التى
خلق لأجلها الخلق كما قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٣)،

(٢) سورة طه: الآية ٩٣.

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٣) سورة النازعات: الآية ٥٦.

فأخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة، وكذلك إنما أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه. فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها ولم يخلقوا لمجرد الترتك فإنه أمر عديم لا كمال فيه من حيث هو عدم، بخلاف امتثال الأمور فإنه أمر وجودي مطلوب الحصول.

وهذا يتبين من الوجه الحادى عشر: وهو أن المطلوب بالنهى عدم الفعل وهو أمر عديم، والمطلوب بالأمر إيجاد فعل وهو أمر وجودي، فتعلق الأمر بالإيجاد، ومتعلق النهى بالإعدام أو العدم وهو أمر لا كمال فيه إلا إذا تضمن أمراً وجودياً، فإن العدم من حيث هو عدم لا كمال فيه ولا مصلحة إلا إذا تضمن أمراً وجودياً مطلقاً، وذلك الأمر الوجودي مطلوب مأمور به فعادت حقيقة النهى إلى الأمر، وأن المطلوب به مافى ضمن النهى من الأمر الوجودي المطلوب به.

وهذا يتضح بالوجه الثانى عشر: وهو أن الناس اختلفوا فى المطلوب بالنهى على أقوال، أحدها: أن المطلوب به كف النفس عن الفعل وحبسها عنه وهو أمر وجودي. قالوا: لأن التكليف إنما يتعلق بالمقدور، والعدم المحض غير مقدور. وهذا قول الجمهور.

وقال أبو هاشم وغيره: بل المطلوب عدم الفعل، ولهذا يحصل المقصود من بقاءه على العدم وإن لم يخطر بباله الفعل، فضلاً أن يقصد الكف عنه. ولو كان المطلوب الكف لكان عاصياً إذا لم يأت به، ولأن الناس يمدحون بعدم فعل القبيح من لم يخطر بباله فعله والكف عنه. وهذا أحد قولى القاضى أبى بكر ولأجله التزم أن عدم الفعل مقدور للعبد وداخل تحت الكسب، قال: والمقصود بالنهى الإبقاء على العدم الأصلي وهو مقدور. وقالت طائفة: المطلوب بالنهى فعل الضد فإنه هو المقدور وهو المقصود للنهاى، فإنه إنما نهاه عن الفاحشة طلباً للصفة وهى المأمور بها، ونهاه عن الظلم طلباً للعدل المأمور به. وعن

الكذب طلباً للصدق المأمور به وهكذا جميع المنهيات . فعند هؤلاء أن حقيقة النهى الطلب لصد المنهى عنه ، فعاد الأمر إلى أن الطلب إنما تعلق بفعل المأمور

والتحقيق أن المطلوب نوعان : مطلوب لنفسه وهو المأمور به ، ومطلوب اعدامه لمضادته المأمور به وهو المنهى عنه ، لما فيه من المفسدة المضادة للمأمور به . فإذا لم يخطر ببال المكلف ولا دعت نفسه إليه بل استمر على العدم الأصلي لم يثب على تركه ، وإن خطر بباله وكف نفسه عنه الله وتركه اختياراً أثيب على كف نفسه وامتناعه ، فانه فعل وجودي والشواوب إنما يقع على الأمر الوجودي دون العدم المحض وإن تركه مع عزمه الجازم على فعله لكن تركه عجزاً ، فهذا وإن لم يعاقب عقوبة الفاعل لكن يعاقب على عزمه وارادته الجازمة التي إنما تخلف مرادها عجزاً .

وقد دلت على ذلك النصوص الكثيرة فلا يلتفت إلى ما خالفها ، كقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) ،

وقوله في كاتم الشهادة : ﴿ فَإِنَّهُ زَاهٍ أَيْمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٢) ،

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (٣) ،

وقوله : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (٤) ،

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٣ .

(٤) سورة الطارق: الآية ٩ .

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٤ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٥ .

والمقتول فى النار»، قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «انه أراد قتل صاحبه» (١). وقوله فى الحديث الآخر: «ورجل قال لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء» (٢).

وقول من قال: إن المطلوب بالنهى فعل الضد ليس كذلك، فإن المقصود عدم الفعل والتلبس بالضدين، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو غير مقصود بالقصد الأول، وإن كان المقصود بالقصد الأول المأمور الذى نهى عما يمنعه ويضعفه، فالمنهى عنه مطلوب اعدامه طلب الوسائل والذرائع، والمأمور به مطلوب ايجاده طلب المقاصد والغايات.

وقول أبى هاشم (٣): إن تارك القبائح يحمد وإن لم يخطر بباله كف النفس. فإن أراد بحمله أنه لا ينم فصحيح، وإن أراد أن يشئ عليه بذلك ويحب عليه ويستحق الثواب فغير صحيح. فإن الناس لا يحمدون المحبوب (٤) على ترك الزنا ولا الأخرس على عدم الغيبة والسب، وإنما يحمدون القادر الممتنع عن قدرة وداع إلى الفعل.

وقول القاضى الإبقاء على العدم الأصلى مقدور، فإن أراد به كف النفس ومنعها فصحيح، وإن أراد مجرد العدم فليس كذلك.

وهذا يتبين بالوجه الثالث عشر: وهو أن الأمر بالشئ نهى عن ضده من طريق اللزوم العقلى لا القصد الطلبى، فإن الأمر إنما مقصوده فعل المأمور. فإذا كان من لوازمه ترك الضد صار تركه مقصوداً لغيره، وهذا

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن حنبل بألفاظ مختلفة.

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد بألفاظ مختلفة.

(٣) يبدو أنه يقصد بأبى هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائى المتكلم المنزلى، وقد كان إماماً فى العربية عالماً بالكلام، له آراء انفرادية، وله مصنفات فى الاعتزال، وتبعته فرقة سميت «الهبشية» نسبة إلى كنيته «أبى هاشم». ولد فى بغداد سنة (٢٤٧هـ = ٨٦١م) وفيها توفى سنة (٣٢١هـ = ٩٣٣م).

(٤) المحبوب: مقطوع الذكر.

هو الصواب فى مسألة الأمر بالشىء هل هو نهى عن ضده أم لا ؟ فهو نهى عنه من جهة اللزوم لا من جهة القصد والطلب . وكذلك النهى عن الشىء، مقصود الناهى بالقصد الأول الانتهاء عن المنهى عنه وكونه مشغلاً بضده جاء من جهة اللزوم العقلى، لكن إنما نهى عما يضاد ما أمر به كما تقدم، فكان الأمر به هو المقصود بالقصد الأول فى الموضعين .

وحرف المسألة أن طلب الشىء طلب له بالذات ولما هو من ضرورته باللزوم، والنهى عن الشىء طلب لتركه بالذات ولفعل ما هو من ضرورة الترك باللزوم، والمطلوب فى الموضعين فعل وكف، وكلاهما أمر وجودى .

الأمر الرابع عشر: أن الأمر والنهى فى باب الطلب نظير النهى والإثبات فى باب الخبر، والمدح والثناء لا يحصلان بالنهى المحض إن لم يتضمن ثبوتاً، فإن النهى كاسمه عدم لا كمال فيه ولا مدح، فإذا تضمن ثبوتاً صح المدح به كنهى النسيان المستلزم لكمال العلم وبيانه . ونهى اللغوب والاعياء والتعب المستلزم لكمال القوة والقدرة . ونهى السنة والنوم المستلزم لكمال الحياة والقيومية . ونهى الولد والصاحبة المستلزم لكمال الغنى والملك والربوبية . ونهى الشريك والولى والشفيع بدون الاذن المستلزم لكمال التوحيد والتفرد بالكمال والالهية والملك . ونهى الظلم المتضمن لكمال العدل . ونفى إدراك الأبصار له المتضمن لعظمته وانه أجل من أن يدرك وإن رآته الأبصار، وإلا فليس فى كونه لا يرى مدح بوجه من الوجوه، فإن العدم المحض كذلك .

وإذا عرف هذا فالمنهى عنه ان لم يتضمن أمراً وجودياً ثبوتياً لم يمدح بتركه ولم يستحق الثواب والثناء بمجرد الترك كما لا يستحق المدح والثناء بمجرد الوصف العلمى .

الوجه السادس عشر: أن المنهى عنه المقصود إعدامه فسى، والا
يدخل فى الوجود، سواء نوى. ذلك أو لم ينو، وسواء خطر بباله أو لم
يخطر. فالمقصود الا يكون. وأما المأمور به فالمقصود كونه وإيجاده والتقرب
به نية وفعلاً.

وسر المسألة: أن وجود ما طلب إيجاده أحب إليه من عدم ما طلب
إعدامه، وعدم ما أحبه أكره إليه من وجود ما يبغضه، فحبته لفعل ما
أمر به أعظم من كراهته لفعل ما نهى عنه.

يوضحه الوجه السابع عشر: أن فعل ما يحبه والاعانة عليه وجزاءه وما
يترتب عليه من المدح والثناء من رحمته. وفعل ما يكرهه وجزاءه وما
يترتب عليه من الذم والألم والعقاب من غضبه. ورحمته سابقة على
غضبه غالباً له، وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من
صفة الغضب، فانه سبحانه لا يكون إلا رحيماً، ورحمته من لوازم ذاته
كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه، فيستحيل أن يكون على
خلاف ذلك. وليس كذلك غضبه، فانه ليس من لوازم ذاته ولا يكون
غضباً دائماً لا يتصور انفكاكه، بل يقول رسله وأعلم الخلق به يوم
القيامة: «ان ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن
يغضب بعده مثله» (١). ورحمته وسعت كل شىء، وغضبه لم يسع كل
شىء. وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه
الغضب، ووسع كل شىء رحمة وعلماً ولم يسع كل شىء غضباً
وانتقاماً.

فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبية على الغضب وما كان
منه وآثاره. فوجود ما كان بالرحمة أحب إليه من وجود ما كان من
لوازم الغضب. ولهذا كانت الرحمة أحب إليه من العذاب، والعفو أحب

(١) رواه البخارى فى الأنبياء، والترمذى فى القيامة، ومسلم فى الإيمان.

إليه من الانتقام. فوجود محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، ولا سيما إذا كان فى فوات مكروهه فوات ما يحبه من لوازمه، فانه يكره فوات تلك اللوازم المحبوبة كما يكره وجود ذلك الملزوم المكروه.

الوجه الثامن عشر: ان آثار ما يكرهه وهو المنهيات أسرع زوالاً بما يحبه من زوال آثار ما يحبه بما يكرهه، فأثار كراهته سريعة الزوال وقد يزيلها سبحانه بالعفو والتجاوز، وتزول بالتوبة والاستغفار والأعمال الصالحة والمصائب المكفرة والشفاعة والحسنات يذهب الميئآت، لو بلغت ذنوب العبد عنان السماء ثم استغفره غفر له ولو لقيه بقراب الأرض خطايا (١)، ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة. وهو سبحانه يغفر الذنوب وان تعاضمت ولا يبالى، فيبطلها ويبطل آثارها بأدنى سعى من العبد وتوبة نصوح وندم على ما فعل، وما ذاك إلا فوجود ما يحبه من توبة العبد وطاعته وتوحيده، فدل على أن وجود ذلك أحب إليه وأرضى له.

يوضحه الوجه التاسع عشر: وهو أنه سبحانه قدر ما يبغضه ويكرهه من المنهيات لما يترتب عليها مما يحبه ويفرح به من المأمورات. فانه سبحانه أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد، والعقيم الوالد، والظمان الوارد، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرحه بتوبة العبد مثلاً ليس فى المضروح به أبلغ منه، وهذا الفرح العظيم الذى وجوده أحب إليه من فواته، ووجوده بدون لازمه ممتنع، فدل على أن وجود ما يحب أحب إليه من فوات كل فرد مما يكره حتى تكون ركعتا الضحى أحب إليه من فوات قتل المسلم، وإنما المراد أن جنس فعل المأمور أفضل من جنس ترك المحظورات، كما إذا فضل الذكر على الأنثى والانسى على الملك (٢)، فالمراد الجنس لا عموم الأعيان.

(١) أى بما يقارب الأرض، يعنى بخطايا كثيرة جداً تقارب الأرض فى كبرها وكثرتها.

(٢) الإنسى: مفرد الإنس: البشر، وقصد بها جنس الإنسان.

والمقصود أن هذا الفرح الذى لا فرح يشبهه بفعل مأمور التوبة يدل على أن هذا المأمور أحب إليه من فوات المحذور الذى تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها .

فإن قيل : إنما فرح بالتوبة لأنها ترك للمنى فكان الفرح بالترك ، قيل : ليس كذلك ، فإن الترك المحض لا يوجب هذا الفرح بل ولا الشواب ولا المدح . وليست التوبة تركاً ، وإن كان الترك من لوازمها ، وإنما هى فعل وجودى يتضمن إقبال التائب على ربه وانايته إليه والتزام طاعته . ومن لوازم ذلك ترك ما نهى عنه ولهذا قال تعالى :

﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ (١)

فالتوبة رجوع مما يكره إلى ما يحب ، وليست مجرد الترك ، فإن من ترك الذنب تركاً مجرداً ولم يرجع منه إلى ما يحبه الرب تعالى لم يكن تائباً ، فالتوبة رجوع وإقبال وإنابة لا ترك محض .

الوجه العشرون : أن المأمور به إذا فات فاتت الحياة المطلوبة للعبد ، وهى التى قال تعالى فيها :

﴿ يَنْتَظِرُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ

كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (٣) ،

وقال فى حق الكفار : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ (٤) ،

وقال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ (٥)

(١) سورة هود : الآية ٣ . (٢) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ . (٤) سورة النحل : الآية ٢١ .

(٥) سورة النمل : الآية ٨٠ .

وأما المنهى عنه فإذا وجد فغاياته ان يوجد المرض، وحياة مع السقم خير من موت.

فإن قيل: ومن المنهى عنه ما يوجب الهلاك وهو الشرك، قيل: الهلاك إنما حصل بعدم التوحيد المأمور به الذى به الحياة، فلما فقد حصل الهلاك، فما هلك إلا من عدم اتيانه بالمأمور به.

وهذه وجه حاد وعشرون فى المسألة: وهو أن فى المأمورات ما يوجب فواته الهلاك والشقاء الدائم، وليس فى المنهيات ما يقتضى ذلك.

الوجه الثانى والعشرون: أن فعل المأمور يقتضى ترك المنهى عنه إذا فعل على وجهه من الاخلاص والمتابعة والنصح لله فيه، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١).

ومجرد ترك المنهى لا يقتضى فعل المأمور ولا يستلزمه.

الوجه الثالث والعشرون: أن ما يحبه من المأمورات فهو متعلق بصفاته، وما يكرهه من المنهيات فتعلق بمفعولاته، وهذا وجه دقيق يحتاج إلى بيان، فنقول:

المنهيات شرور وتفضى إلى الشرور، والمأمورات خير وتفضى إلى الخيرات، والخير بيديه سبحانه والشر ليس إليه، فإن الشر لا يدخل فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى أسمائه، وإنما هو فى المفعولات مع أنه شر بالاضافة والنسبة إلى العبد، وإلا من حيث اضافته ونسبته إلى الخالق سبحانه، فليس بشر من هذه الجهة. فغاية ارتكاب المنهى أن يوجب شراً بالاضافة إلى العبد مع أنه فى نفسه ليس بشر. وأما فوات المأمور فيفوت به الخير الذى يفوته يحصل ضده من الشر، وكلما كان المأمور أحب إلى الله سبحانه كان الشر الحاصل بفواته أعظم كالتوحيد والإيمان.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

وسر هذه الوجوه أن المأمور به محبوبه ، والمنهى مكروهه ، ووقوع محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه ، وفوات محبوبه أكره إليه من وقوع مكروهه والله أعلم .

فصل الذكر والشكر

مبنى الدين على قاعدتين : الذكر والشكر ، قال تعالى :

﴿ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ (٢) : « والله إنى لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني . وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه ، وذلك يستلزم معرفته والايان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح . وذلك لا يتم إلا بتوحيده . فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه واحسانه إلى خلقه .

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بانواع محابه ظاهرا وباطنا ، وهذان الأمران هما جامع الدين ، فذكره مستلزم لمعرفته وشكوره ، متضمن لطاعته ، وهذان هما الغاية التى خلق لأجلها الجن والانس - والسموات والأرض ، ووضع لأجلها الثواب والعقاب ، وأنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، وهى الحق الذى به خلقت السموات والأرض وما بينهما ، وضدها هو الباطل والعبث الذى يتعالى ويتقدس عنه ، وهو ظن أعدائه به . قال تعالى :

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٢ .

(٢) معاذ بن جبل الصحابى المشهور .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطِلَافٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (١)

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (٢)

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ (٣)

وقال بعد ذكر آياته في أول سورة يونس:

﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (٤)

وقال: ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٥)

وقال: ﴿ الْحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴾ (٦)

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٧)

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (٨)

وقال ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

(٢) سورة الدخان: الآية ٣٨.

(٤) سورة يونس: الآية ٥.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

(٨) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(١) سورة ص: الآية ٢٧.

(٣) سورة الحجر: الآية ٨٥.

(٥) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٧) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر. يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر. وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره، فذكره سبب لذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله (٢). فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وانابة، واللسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة.

فصل

الهداية تجر الهداية والضلال يجز الضلال

تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والاضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره. وكذلك الضلال، فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى. وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضا فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور، فن الأصل قوله تعالى:

﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣)

وهذا يتضمن أمرين:

(١) سورة المائدة: الآية ٩٧.

(٢) أى: فذكر العبد سبب لذكر الله عز وجل، وشكر العبد سبب لزيادة الله من فضله.

(٣) سورة البقرة: الآية ١ - ٢.

أحدهما: أنه يهdy به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد فى الأرض ويمقت فاعل ذلك، ويجب العدل والاحسان والجود والصدق والاصلاح فى الأرض ويجب فاعل ذلك. فلما نزل الكتاب أثناب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به.

مراتب الهداية

والأمر الثانى: أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملا وقبل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سببا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل. فإن الهداية لانهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية. فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو فى مزيد هداية مادام فى مزيد من التقوى. وكلما فوت حظا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه. قال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ مَن يَخْشَى﴾ (٣)

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(١) سورة المائدة: الآية ١٥ - ١٦.

(٣) سورة الأعلى: الآية ١٠.

وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (١)

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (٢)

فهدهم أولا للايمان، فلما آمنوا هدهم للايمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله تعالى:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (٤)

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذى يتمكنون به من اقامة الحق وكسر الباطل، فسر القرآن بهذا وبهذا. وقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٥)

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٦)

فى سورة لقمان وسورة إبراهيم وسبأ والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيسانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الايمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والانابة ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال:

﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى﴾ (٧)

(٢) سورة يونس: الآية ٩.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

(٦) سورة سبأ: الآية ١٩.

(١) سورة غافر: الآية ١٣.

(٣) سورة مريم: الآية ٧٦.

(٥) سورة سبأ: الآية ٩.

(٧) سورة طه: الآية ١ - ٣.

وقال فى الساعة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشَنُّهَا﴾ (١)،

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية. لهذا لما ذكر سبحانه فى سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسول وما حل بهم فى الدنيا من الحزى، قال بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ (٢)

فأخبر أن فى عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية فى حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل فى الدهر الخير والشر والنعم والبؤس والسعادة والشقاوة. وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية. وإنما كان الصبر والشكر سببا لانتفاع صاحبها بالآيات، لأن الايمان ينبنى على الصبر والشكر، فنصفه صبر-ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه. وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الايمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك اجابة داعى الهوى. فإذا كان مشركا متبعيا هواه لم يكن صابرا ولا شكورا، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه ايمانا.

فصل

وأما الأصل الثانى: وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال فكثير أيضا فى القرآن كقوله تعالى:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ

(٢) سورة هود: الآية ١٠٣.

(١) سورة النازعات: الآية ٤٥.

يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿فَالْكَرُ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتَنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٥)

فأخبر أنه غاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفعدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان، كما قال تعالى:

﴿يَنَّايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (٦)

فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذي يكون سببا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم. وقال تعالى:

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦ - ٢٧ .

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧ .

(٣) سورة النساء: الآية ٨٨ .

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٨ .

(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٠ .

(٦) سورة الأنفال: الآية ٢٤ .

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢)

فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينهم وبين الايمان بآياته ، فقالوا أساطير الأولين .

وقال تعالى فى المنافقين: ﴿ قَسُوا آلَهُ فَانْسَبَهُمْ ﴾ (٣)

فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم فلم يذكرهم بالهدى والرحمة ، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كماها بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق ، فأنساهم طلب ذلك ومحبه ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له ، وقال تعالى فى حقهم:

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٤)

فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلal الذى هو ثمرته وموجه كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى .

فصل

الهدى قرين الرحمة والضلال قرين الشقاء

وكما يقرن سبحانه بين الهدى والتقوى والضلال والغى ، فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء ، فمن الأول قوله :

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

(٢) سورة المطففين: الآية ١٤ .

(٤) سورة محمد: الآية ١٦ - ١٧ .

(١) سورة الصف: الآية ٥ .

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٧ .

(٥) سورة البقرة: الآية ٥ .

وقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ﴾ (١)

وقال عن المؤمنين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٢)

وقال أهل الكهف: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (٣)

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤)

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥)

وقال: ﴿وَوَرَّسْنَا عَلَىكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٦)

وقال: ﴿يَنبَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكَ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧)

(٢) آل عمران: الآية ٨.

(٤) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٦) سورة النحل: ٨٩.

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٧.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٠.

(٥) سورة النحل: الآية ٦٤.

(٧) سورة يونس: الآية ٥٧.

ثم أعاد سبحانه ذكرهما فقال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَ لَكَ فَلْيَقْرَحُوا ﴾ (١)

وقد تنوعت عبارات السلف فى تفسير الفضل والرحمة ، والصحيح أنها الهدى والنعمة ، ففضله هداة ، ورحمته نعمته ، ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة كقوله فى سورة الفاتحة :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢)

ومن ذلك قوله لنبىه يذكره بنعمه عليه :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (٣)

فجمع له بين هدايته له وانعمامه عليه بآيائه واغناؤه . ومن ذلك قول نوح :

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّى وَأَتَنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ (٤)

وقول شعيب :

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ (٥)

وقال عن الخضر :

﴿ قَوِّمْنَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٦)

وقال لرسوله :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ

(١) سورة يونس: الآية ٥٨ .
 (٢) سورة الطاعة: الآية ٦ .
 (٣) سورة الضحى: الآية ٦ و ٧ و ٨ .
 (٤) سورة هود: الآية ٢٨ .
 (٥) سورة هود: الآية ٨٨ .
 (٦) سورة الكهف: الآية ٦٥ .

مِنْ ذُنُوبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبَيْنَ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ
اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾

وقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٢)

وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ
أَبَدًا﴾ (٣)

ففضله هدايته ورحمته انعامه واحسانه إليهم وبره بهم . وقال :
﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (٤)
والهدى منعه من الضلال ، والرحمة منعه من الشقاء ، وهذا هو الذى
ذكره فى أول السورة فى قوله :

﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٥)

فجمع له بين انزال القرآن عليه ونفى الشقاء عنه ، كما قال فى آخرها
فى حق اتباعه : ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لا ينفك بعضها عن
بعض ، كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ،
قال تعالى :

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ مُسِيرٍ﴾ (٦)

-
- | | |
|-----------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة الفتح: الآية ١ و ٢ و ٣ . | (٢) سورة النساء: الآية ١١٣ . |
| (٣) سورة النور: الآية ٢١ . | (٤) سورة طه: الآية ١٢٣ . |
| (٥) سورة طه: الآية ١ . | (٦) سورة القمر: الآية ٤٧ . |

والسعر: جمع سعي، وهو العذاب الذى هو غاية الشقاء. وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَاتِنَا لِمَن بَلََّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى عنهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢)

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانسراح الصدر والحياة الطيبة وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة والضنك، قال تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (٣)

وقال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٤)

وكذلك يجمع بين الهدى والانابة وبين الضلال وقسوة القلب، قال

تعالى: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٥)

وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٦)

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة الملك: الآية ١٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٤) سورة الزمر: الآية ٢٢.

(٥) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٦) سورة الزمر: الآية ٢٢.

فصل العطاء والمنع

والهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والانعام كله من صفة العطاء، والاضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام، وحمد تام، فلا إله إلا الله.

فصل العقل لا يتعلق بالعالم السفلى

إذا رأيت النفوس المبجلة الفارغة من الارادة والطلب لهذا الشأن قد تشبث بها هذا العالم السفلى وقد تشبثت به فكلها إليه، فإنه اللائق بها لفساد تركيبها ولا تنقش عليها ذلك فإنه سريع الانحلال عنها ويبقى تشبثها به مع انقطاعه عنها عذابا عليها بحسب ذلك التعلق، فتبقى شهوتها وارادتها فيها. وقد حيل بينها وبين ماتشتى على وجه يثبت معه من حصول شهوتها ولذتها. فلو تصور العقل ما فى ذلك من الألم والحسرة لبادر إلى قطع هذا التعلق كما يبادر إلى حسم مواد الفساد، ومع هذا فإنه ينال نصيبه من ذلك وقلبه وهمه متعلق بالمطلب الأعلى، والله المستعان.

فصل مفاسد الكذب

إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصور المعلوم موجودا والموجود معدوما، والحق باطلا والباطل حقا، والخير شرا والشر

خيرا، فيفسد عليه تصويره وعلمه عقوبة له . ثم يصور ذلك فى نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصويره وعلمه . ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة نزاعة إلى العدم مؤثرة للباطل . وإذا فسدت عليه قوة تصويره وعلمه التى هى مبدأ كل فعل إرادى فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها فصار صدورها عنه كمصدر الكذب عن اللسان ، فلا يتتفع بلسانه ولا بأعماله .

ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار» (١) . وأول ما يسرى الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده ، ثم يسرى إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله ، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله ، فيستحكم عليه الفساد ويتراعى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع المادة من أصلها .

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق ، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب . فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فنشؤه الصدق . وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فنشؤه الكذب . والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعه ويثبته عن مصالحه ومنافعه ، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته ، فاستجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ، ولا مفسدتهما ومضارهما بمثل الكذب . قال

تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ ﴾ (٢)

(١) ورد الحديث فى البخارى ومسلم وسنن أبى داود والترمذى بألفاظ مختلفة . ولفظه عند مالك أن عبد الله بن مسعود كان يقول : «عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار . ألا ترى أنه يقال : صدق وبر ، وكذب وفجر» . (الموطأ - الحديث ١٨١٤ - طبعة دار النفائس) .
(٢) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

وقال تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (١)

وقال: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (٢)

وقال: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣)

فصل

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم

فى قوله تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

فى هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح العبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتى بالمحجوب، والمحجوب قد يأتى بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتیه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد (و) أوجب له ذلك أمورا:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه فى الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شئ أنهر عليه من ارتكاب النهى وإن هويته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير

(٢) سورة محمد: الآية ٢١.

(١) سورة المائدة: الآية ١١٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٠.

الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبا من الألم العظيم والشر الطويل .
فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعقل الكيس دائما ينظر
إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء تلك الستور من
الغايات المحمودة والمذمومة . فيرى المناهى كطعام لذيق قد خلط فيه سم
قاتل ، فكلما دعت له لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم . ويرى الأوامر
كدواء كربه المذاق مفض إلى العافية والشفاء ، وكلما نهاه كراهة مذاقه
عن تناوله أمره نفعه بالتناول . ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به
الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق
لما يؤمل عند الغاية ، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك ، وإذا قوى
يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها فى طلب الخير الدائم واللذة
الدائمة .

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضى من العبد التفويض إلى من يعلم
عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن
العاقبة .

ومنها : أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به
علم ، فلعل مضرتة وهلاكه فيه وهو لا يعلم ، فلا يختار على ربه شيئا بل
يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك .

ومنها : أنه إذا فوض إلى ربه ورضى بما يختاره له أمده فيما يختاره له
بالقوة عليه والعزيمة والصبر وصرف عنه الآفات التى هى عرصة اختيار
العبد لنفسه وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى
بعضه ، بما يختاره هو لنفسه .

ومنها : أنه يريجه من الأفكار المتعبة فى انواع الاختيارات ، ويفرغ
قلبه من التقديرات والتدبيرات التى يصعد منها فى عقبة وينزل فى
أخرى ، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه ، فلورضى باختيار الله

أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا جرى عليه القدر وهو منموم غير ملطوف به فيه . لأنه مع اختياره لنفسه ، ومتى صح تفويضه ورضاه ، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللفظ به فيصير بين عطفه ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهون عليه ما قدره .

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده ، فلا أنفع له من الاستسلام والقاء نفسه بين يدي القدر طريقا كالميتة ، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف .

فصل شروط السعادة بالعلم

لا يستفيع بنعمة الله بالايان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ولم يتجاوزها إلى ما ليس له ولم يتعد طوره ولم يقل هذا لى ، وتيقن أنه الله ومن الله وبالله فهو المان (١) به ابتداء وإدامة بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه ، فتذله نعم الله عليه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرا البتة ، وأن الخير الذى وصل إليه فهو لله وبه ومنه فتحدث له النعم ذلا وانكسارا عجيبا لا يعبر عنه . فكلما حدد له نعمة ازداد ذلا وانكسارا وخشوعا ومحبة وخوفا ورجاء ، وهذا نتيجة علمين شريفين : علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده واحسانه ورحمته ، وأن الخير كله فى يديه وهو ملكه يوتى منه من يشاء ويمنع منه من يشاء ، وله الحمد على هذا ، وهذا أكمل حمد وأتمه . وعلمه بنفسه ووقوفه على جدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها ، وأنها لا خير فيها البتة ولا لها ولا بها ولا منها وأنها ليس لها من ذاتها إلا العلم فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلا العلم الذى لا شىء أحقر منه ولا أنقص ، فأ فيها

(١) المان : اسم فاعل من ، فهو المان جل وعلا .

من الخير تابع لوجودها الذى ليس إليها ولا بها . فإذا صار هذان العلمان صبغة لها لا صبغة على لسانها علمت حينئذ أن الحمد كله لله والأمر كله له والخير كله فى يديه ، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها ، وأنها هى أولى بالذم والعيب واللوم . ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله وتخبط عليه ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله . فايصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتتين علما وحالا ، وانقطاعه بفواتهما . وهذا معنى قولهم : من عرف نفسه عرف ربه فإنه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم ، عرف ربه بضد ذلك فوقف بنفسه عند قدرها ولم يتعد بها طورها ، وأثنى عليه ربه ببعض ما هو أهله ، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وانايته وتوكله اليه وحده ، وكان أحب شيء إليه وأخوف شيء عنده وارجاه له ، وهذا هو حقيقة العبودية ، والله المستعان .

ويحكى أن بعض الحكماء كتب على باب بيته : أنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ، فن كان كذلك فليدخل والا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة .

فصل

مساوىء الشهوات

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة ، فإنها إما أن توجب ألما وعقوبة ، وإما أن تقطع لذة أكمل منها ، وإما أن تضيع وقتا اضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تثلم عرضا توفيره أنفع للعبد من ثلمه ، وإما أن تذهب مالا بقاؤه خير له من ذهابه ، وإما أن تضيع قدرا وجاها قيامه خير من وضعه ، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألد وأطيب من قضاء الشهوة ، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقا لم يكن يجدها قبل ذلك ،

وإما أن تجلب هما وغما وحزنا وخوفا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علما ذكره ألد من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوا وتحزن وليا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبا يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث للصفات والأخلاق.

فصل حدود الأخلاق

للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانا، ومتى قصرت عنه كان نقصا ومهانة.

فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقا، وهذا كماله. فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وللحرص حد وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فتى نقص من ذلك كان مهانة واضاعة، ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناة وضعف همة وصغر نفس. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس»^(١)، فهذا حسد منافسة

(١) رواه أحمد بن حنبل والبخاري ولفظه عند البخاري في باب التمني: «لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل والنهار يقول: لو أوتيت مثل ما أوتيت هذا لفعلت كما يفعل: ورجل آتاه الله مالا ينفقه في حقه فيقول: لو أوتيت مثل ما أوتيت لفعلت كما يفعل».

يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك، فتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغا فى طلب الكمال والفضل كانت ضعفا وعجزا ومهانة.

وللراحة حد وهو اجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفيرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فتى زاد على ذلك صار توانيا وكسلا وأضاعه وفات به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مضرا بالقوى موهنا لها وربما انقطع به كالمثبت الذى لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

والجود له حد بين طرفين، فتى جاوز حده صار اسرافا وتبذيرا، ومتى نقص عنه كان بخلا وتقتيرا.

وللشجاعة حد إذا جاوزته صار تهورا، ومتى نقصت عنه صار جبنا وخورا. وحدها الاقدام فى مواضع الاقدام والاحجام فى مواضع الاحجام، كما قال معاوية لعمر بن العاص: أعيانى أن أعرف أشجاعا أنت أم جبانا تقدم حتى أقول من أشجع الناس، وتجن حتى أقول من أجب الناس، فقال:

شجاع إذا امكنتنى فرصة فإن لم تكن لى فرصة فجبان
والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنا سيئا بالبرىء، وإذا قصرت عنه كانت تغافلا ومبادئ دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلا ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كبرا وخلقا مذموما ، وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة .

خير الأمور الوسط

وضابط هذا كله العدل ، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط ، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة ، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به . فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أُنقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك . وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك ، إذا كانت وسطا بين الطرفين المذمومين كانت عدلا وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصا وأثمرت نقصا .

فن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود ، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهى . فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود ، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخل فيها . قال تعالى :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ (١) فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفلا ، وبالله التوفيق .

فصل

التقوى فى القلوب

قال أبو الدرداء (٢) رضى الله عنه : يا حبذا نوم الأكياس (٣)

(١) سورة التوبة : الآية ٩٧ .

(٢) اسمه عويمر بن مالك ، صحابى أنصارى ، كان تاجراً فى المدينة ثم انقطع للعبادة بعد إسلامه . اشتهر بالشجاعة ، أبى بلاء حسناً فى معركة أحد . ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر من عمر ابن الخطاب . وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد النبى صلى الله عليه وسلم . مات فى النعام سنة (٣٢ هـ = ٦٥٢ م) .

(٣) الأكياس : جمع كبس . وهو عكس الأحمق .

وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم ، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين . وهذا من جواهر الكلام وأدلته على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم فى كل خير، رضى الله عنهم .

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمة لا ببدنه . والتقوى فى الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح . قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْبًا اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (١)

وقال : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ (٢)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «التقوى ههنا : وأشار إلى صدره» (٣) .

فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل ، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق . فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير ، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل ، فإن ساواه فى همته تقدم عليه بعمله ، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الاسلام الاحسان .

اكمل الهدى

فاكمل الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان موفيا كل واحد منهما (٤) حقه ، فكان مع كماله وارادته وأحواله مع الله حتى

(١) سورة الحج : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الحج : الآية ٣٧ .

(٣) رواه الترمذى وأحمد بن حنبل .

(٤) يعود الضمير إلى ما يفسره الكلام السابق من قوله : «الإسلام والإحسان» .

ترم قدماء، ويصوم حتى يقال لا يفطر، ويجاهد في سبيل الله، ويخالط أصحابه ولا يحتجب عنهم، ولا يترك شيئاً من النوافل والأوراد لتلك الواردات التي تعجز عن حملها قوى البشر. والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الاسلام على ظواهرهم وحقائق الايمان على بواطنهم، ولا يقبل واحدا منها إلا بصاحبه وقرينه .

وفى المسند مرفوعاً: «الاسلام علانية والايمان فى القلب». فكل اسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الايمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شىء من الايمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الاسلام الظاهر لا تنفع ولو كانت ما كانت. فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار. كما أنه لو قام بظواهر الاسلام وليس فى باطنه حقيقة الايمان لم ينجه ذلك من النار.

وإذا عرف هذا، فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة
قسمان :

قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم يكونوا خالين من أصلها ولكن همهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال .

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده والجمعية عليه وحفظ الخواطر والارادات معه . وجعلوا قوة تعبدتهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والانتابة ورأوا أن أيسر نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله أحب إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فإذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أنس أو حب أو اشتياق أو انكسار وذل، لم يستبدل به شيئاً سواه البتة، إلا أن يحىء الأمر فيبادر إليه بذلك الوارد

إن أمكنه ، وإلا بادر إلى الأمر ولو ذهب الوارد . فإذا جاءت النوافل فههنا معترك التردد ، فإن أمكن القيام إليها به فذاك والا نظر في الأرجح والأحب إلى الله ، هل هو القيام إلى تلك النافلة ولو ذهب وارده كاغاثة الملهوف وإرشاد ضال وجبر مكسور واستفادة إيمان ونحو ذلك ، فههنا ينبغي تقديم النافلة الراجعة ، ومتى قدمها لله رغبة فيه وتقربا إليه فإنه يرد عليه مافات من وارده أقوى مما كان في وقت آخر ، وإن كان الوارد أرجح من النافلة فالخزم له الاستمرار في وارده حتى يتوارى عنه فإنه يفوت والنافلة لا تفوت .

وهذا موضع يحتاج إلى فضل فقه في الطريق ومراتب الأعمال وتقديم الأهم منها فالأهم ، والله الموفق لذلك لا إله غيره ولا رب سواه .

فصل

أصل الأخلاق الممدوحة والمذمومة

أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة ، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة ، فالفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغى والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والاعراض وأبأ قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة . أن يحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك ، كلها ناشئة من الكبر .

وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك ، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس .

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والايثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والاخلاص والمكافأة على

الاحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لا يعننيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك ، فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة . والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتتهز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها ، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق .

وأما النار فطبعها العلو والافساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذاء ، وكذلك المخلوق منها . فهي دائماً بين العلو إذا هاجت واضطربت ، وبين الخسة والذل إذا خمدت وسكنت . والأخلاق المذمومة تابعة لل نار والمخلوق منها ، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها . فن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل ، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل .

فصل

مستلزمات المطالب العليا

المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة ، فن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه ، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره . وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه ، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب ، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته . وإذا كانت همته ساقلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى . وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه . فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه ولا يتم له إلا بترك ثلاثة أشياء :

الأول : العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس .

الثاني : هجر العوائق التي تعوقه عن أفراد مطلوبه وطريقه وقطعها .

الثالث: قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب. والفرق بينها أن العوائق هي الحوادث الخارجية، والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها. وأصل ذلك ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه، والله المستعان.

فصل

من حكم ابن مسعود

من كلام عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: قال رجل عنده (١): ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أحب أن أكون من المقربين. فقال عبد الله: لكن ههنا رجل ود أنه إذا مات لم يبعث، يعنى نفسه.

وخرج ذات يوم فأتبعه ناس فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا لا، ولكن أردنا أن نمشى معك، قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبع.

وقال: لو تعلمون منى ما أعلم من نفسى لثوتم (٢) على رأسى التراب.

وقال: حبذا المكروهان: الموت والفقر وأيم الله إن هو إلا الغنى والفقر وما أبالى بأيهما بليت، أرجو الله فى كل واحد منها، إن كان الغنى إن فيه للعطف، وإن كان الفقر إن فيه للصبر.

وقال: إنكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتى بغتة، فن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرا

(١) أى عند ابن مسعود.

(٢) أى لوضعتم.

فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطيء بحظه ولا يدرك حريص ما لم يقدر له .

* من أعطى خيرا فالله أعطاه ، ومن وقى شرا فالله وقاه .

* المتقون سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة .

* إنما هما اثنتان : الهدى والكلام ، فأفضل الكلام كلام الله ، وأفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، فلا يطولن عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل فإن كل ما هو آت قريب ، ألا وإن البعيد ما ليس آتيا ، ألا وإن الشقى من شقى فى بطن أمه ، وإن السعيد من وعظ بغيره ، ألا وإن قتال المسلم كفر وسبابه فسوق ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام حتى يسلم عليه إذا لقيه ويحييه إذا دعاه ويعوده إذا مرض . ألا وإن شر الروايا روايا الكذب ، ألا وإن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا أن يعد الرجل صبيه شيئا ثم لا ينجزه ألا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، والصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة ، وأنه يقال للصادق صدق وبر ، ويقال للكاذب كذب وفجر ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم حدثنا أن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

* ان أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقى ، وخير الملة ملة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وخير الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وخير القصص القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ونفس تنجها خير من امارة لا تحصيها ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة ، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، وخير ما ألقى فى القلب

اليقين، والريب من الكفر، وشر العمى عمى القلب، والخمر جماع الأثم، والنساء حباثل الشيطان؛ والشباب شعبة من الجنون، والنوح من عمل الجاهلية.

* من الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبرا^(١) ولا يذكر الله إلا هجرا. وأعظم الخطايا الكذب، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله^(٢)، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المأكول مال اليتيم، وإنما يكفى أحدكم ما قنعت به نفسه، وإنما يصير إلى أربعة أذرع والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، وأشرف الموت قتل الشهداء، ومن يستكبر يضعه الله، ومن يعص الله يطع الشيطان.

* ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونا حكيما حلما سكيما، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافيا ولا غافلا ولا سخابا^(٣) ولا صياحا ولا حديدا.

* من تناول تعظماً حطه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله. وإن للملك لمة^(٤) وللشيطان لمة، فلمة الملك إبعاد بالخير وتصديق بالحق، فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله. ولمة الشيطان إبعاد بالشر وتكذيب بالحق، فإذا رأيتم ذلك فتعوذوا بالله.

* إن الناس قد أحسنوا القول، فن وافق قوله فعله فذاك الذى أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبخ نفسه.

(١) أى إنه بأتى الصلاة حين يدبر وقتها. (٢) أى يجعل الله العاقبة له.

(٣) من السخب: وهو الصخب. (٤) اللمة: المرة، وللشيطان لمة أى دنو.

* لا ألفين أحدكم جيفة ليل قطرب^(١)، نهار انى لأبغض الرجل أن أراه فارغاً ليس فى شىء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة، ومن لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً.

* من اليقين ألا ترضى الناس بسخط الله، ولا تحمد أحداً على رزق الله، ولا تلوم أحداً على ما لم يؤتكَ الله. فان رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره، وان الله يقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

* ما دمت فى صلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يقرع باب الملك يفتح له.

* انى لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها.

* كونوا يتابع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت^(٢)، وسرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون فى السماء وتخفون على أهل الأرض.

* أن للقلوب شهوة وأدبارا فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وادبارها.

* ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية.

* انكم ترون الكافر من أصبح الناس جسماً وأمراضه قلباً، وتلقون المؤمن من أصبح الناس قلباً وأمراضه جسماً، وأيم الله، لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان.

* لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقير أحب إليه من الغنى والتواضع أحب إليه من الشرف،

(١) القطرب: اللص والفأرة.

(٢) كونوا أحلاس البيوت: أى الزمواها.

وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء، وأن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء، يأتي الرجل ولا يملك له ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً، فيقسم له بالله أنك لذيت وذيت (١)، فيرجع وما حبي من حاجته بشيء ويسخط الله عليه.

* لو سخرت من كلب لحشيت أن أحول كلباً.

* الإثم حواز (٢) القلوب.

* ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعاً.

* مع كل فرحة ترحة وماملئ بيت حبرة (٣) إلا ملئ عبدة. وما منكم إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة إلى أهلها.

* يكون في آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم يسمون الأنتان (٤).

* إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه فليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه.

* الحق ثقيل مرء والباطل خفيف وبيء.

* رب شهوة تورث حزناً طويلاً.

* ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

* إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن بهلاكها.

(١) أي كبت وكبت، كناية عن عبارات المدح تملقاً.

(٢) فيه ثلاث روايات: بتشديد الواو أو فتحها فقط أو بتشديد الزاي. والمعنى أنه يسوق القلوب ويغلب عليها.

(٣) الحبرة: النعمة وسعة العيش.

(٤) الأنتان: جمع نتن: من كان به رائحة كريهة.

* من استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا يأكله السوس ولا يناله السراق فليفعل ، فإن قلب الرجل مع كنزه .

* لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً ، فإن آمن آمن وإن كفر كفر ، وإن كنتم لا بد مقتدين فاقنطروا بالميت ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة .

* لا يكن أحدكم امعة ، قالوا وما الامعة ؟ قال : يقول أنا مع الناس ان اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت ، ألا ليوطن أحدكم نفسه على أنه ان كفر الناس لا يكفر .

وقال له رجل : علمنى كلمات جوامع نوافع ، فقال : اعبد الله لا تشرك به شيئاً وزل مع القرآن حيث زال ، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً ، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً .

* يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له أد أمانتك ، فيقول يارب من أين وقد ذهبت الدنيا فتمثل على هيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم ، فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها ، حتى إذا ظن أنه خارج بها هوت وهوى فى أثرها أبد الآبدين .

* اطلب قلبك فى ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفى مجالس الذكر ، وفى أوقات الخلوة . فإن لم تجده فى هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك .

قال الجنيد (١) : دخلت على شاب (٢) فسألنى عن التوبة فأجبته ،

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز «أبو القاسم» : من العلماء بالدين ، صوفى . ولد ببغداد وفيها توفى سنة (٢٩٧هـ = ٩١٠م) . قال أحد معاصريه : ما رأيت عينى مثله . الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه . وهو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد . وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهب بقواعد الكتاب والسنة ، ولكونه مصوناً من العقائد النعمية .

(٢) ربما كان الصواب «دخل على شاب» كما يدل سياق الحكاية .

فسألتنى عن حقيقتها، فقلت: أن تنصب ذنبك بين عينيك حتى يأتيك الموت. فقال لى: مه، ما هذا حقيقة التوبة. فقلت له: فما حقيقة التوبة عندك يا فتى؟ قال: أن تنسى ذنبك. وتركنى ومضى. فكيف (١) هو عندك يا أبا القاسم؟ فقلت: القول ما قال الفتى. قال: كيف قلت إذا كنت معه فى حال ثم نقلنى من حال الجفاء إلى حال الوفاء، فذكرى للجفاء فى حال الوفاء جفاء.

فصل

الاخلاص وحب الثناء لا يجتمعان

لا يجتمع الاخلاص فى القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضرب والحوت. فإذا حدثتكَ نفسك بطلب الاخلاص فاقبل على الطمع أولاً فاذهب به بسكين اليأس، واقبل على المدح والثناء فازهد فيها زهد عشاق الدنيا فى الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد فى الثناء والمدح سهل عليك الاخلاص.

فان قلت: وما الذى يسهل على ذبح الطمع والزهد فى الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شىء يطمع فيه إلا ويبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يوتى العبد منها شيئاً سواه. وأما الزهد فى الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابى للنبي صلى الله عليه وسلم: ان مدحى زين وذمى شين، فقال ذلك الله عز وجل. فازهد فى مدح من لا يزينك مدحه وفى ذم من لا يشينك ذمه، وارغب فى مدح من كل الزين فى مدحه وكل الشين فى ذمه، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فتى فقدت

(١) الظاهر أن هنا نقصاً.

الصبر واليسقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب . قال تعالى :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) ،

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايِنَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

فصل

اللذة حسب الهمة

لذة كل أحد على حسب قدره وهمة وشرف نفسه ، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً من لذته في معرفة الله ومحبة والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه . فلذته في إقباله عليه وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله ، حتى تنتهي إلى من لذته في أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والأشغال . فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا التفتت إليه وربما تأملت من ذلك ، كما أن الأول إذا عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت إليه ونفرت نفسه منه .

وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن ، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والأنس بربه . فهذا ممن قال تعالى فيه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ

(٢) سورة السجدة : الآية ٢٤ .

(١) سورة الروم : الآية ٦٠ .

هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٢﴾

وأنجسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات:

﴿ أَذْهَبَتْ طَيِّبَاتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ (٢)،

فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع، فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة وسواء أذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتهم لذة الآخرة فلا لذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم. فن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله إرادته (٣) وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى، وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة، ويجم نفسه (٤) ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك. فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همته لما هناك، وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته، وحولها يندندن، وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة. فن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بها جميعاً وإلا خسرهما جميعاً.

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٢. (٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٠.

(٣) هذا له وجه، ولعل الصواب؛ في إرادته وعبادته. فيكون لفظ «في» ساقطاً من

الناسخ.

(٤) أي يبهج نفسه ويسرها.

آثار ترك المعاصي :

سبحان الله رب العالمين. لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروعة وصون العرض وحفظ الجاه وصيانة المال الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومجبة الخلق وجواز القول بينهم وصلاح المعاش وراحة البدن وقوة القلب وطيب النفس ونعيم القلب وانشرح الصدر، والأمن من غياوف الفساد والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساد والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أودى وظلم، وذبحهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الانس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعلم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدمه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حلة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكتابين به ودعائهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا. فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه وبالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من

سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة. فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق، وهو في ظل العرش. فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين. (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

فصل

ورع عمر بن عبد العزيز

ذكر ابن سعد في الطبقات (١) عن عمر بن عبد العزيز (٢) أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه. وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزقه، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، أعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله مطالعاً فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن. فالذي من عليه بذلك هو الذي من عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه

(١) ابن سعد هو محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري «أبو عبد الله». ولد سنة ١٦٨ هـ بالبصرة ونسب إليها، وارتحل إلى بغداد ولازم فيها أستاذه الواقدي. وزار الكوفة والمدينة والتقى بعدد كبير من الشيوخ والأئمة والمحدثين. وقد وصف بأنه كثير العلم، كثير الحديث والرواية، كثير الكتب. كما وصف بالصدق والعدالة والثقة. وتوفي في الرابع من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ بمدينة بغداد. وكتابه «الطبقات الكبرى» لم يسبقه أحد إليه سوى الواقدي في طبقاته. ابتداء الجزء الأول منها بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ترجم للصحابة والتابعين... وهكذا حسب التسلسل الزمني. فالطبقة الأولى طبقة الصحابة، ثم طبقة التابعين، ثم تابعو التابعين.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. ولد بالمدينة سنة ٦١ هـ (٨٦١ م) وشب بها وولى إمارتها للوليد بن عبد الملك، ثم استوزره سليمان بالشام، وولى الخلافة بعده منه سنة ٩٩ هـ. اشتهر بالزهد والعدل والصلاح، حتى لقب بخامس الخلفاء الراشدين. وكانت مدة حكمه قصيرة لم تتجاوز السنتين والنصف، فقد توفي مسموماً في عام (١٠١ هـ = ٧٢٠ م).

وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه وإعانتته . فإذا غاب عن تلك الملاحظة وثبتت النفس وقامت في مقام الدعوى ، فوقع العجب ففسد عليه القول والعمل ، فتارة يحال بينه وبين تمامه ويقطع عليه ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق . وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة ، وإن أثمر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود . وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه ، ويتولد له منه مفسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤية نفسه وأن القول والفعل به .

ومن هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها أو يفسدها عليه ويمتنعه ثمرتها . فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس ، فإذا أراد الله بعبده خيراً أشهد منته وتوفيقه وإعانتته له في كل ما يقوله ويفعله فلا يعجب به . ثم أشهد تقصيره فيه وأنه لا يرضى لربه به فيتوب إليه منه ويستغفره ، ويستحيى أن يطلب عليه أجراً . وإذا لم يشهد ذلك وغيبه عنه فرأى نفسه في العمل ورآه بعين الكمال والرضا ، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة . فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهداً فيه منته وفضله وتوفيقه ، معتذراً منه إليه ، مستحيياً منه إذ لم يوفه حقه . والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه ناظراً فيه إلى نفسه يمين به على ربه راضياً بعمله ، فهذا لون وذاك لون آخر .

فصل

فوائد هجر العوائد

الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق . فالعوائد السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع ، بل هي عندهم أعظم من

الشرع. فانهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع. وربما كفروه أو بدعوه وضلوه، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماوا لها السنن، ونصبوها أنداداً للرسول يوالون عليها ويعادون. فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بنى آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامّة. فربى فيها الصغير ونشأ عليها الكبير واتخذت سنناً بل هي أعظم عند أصحابها من السنن. الواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع. عم بها المصاب، وهجر لأجلها السنة والكتاب. من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول. وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

فصل

العوائق

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فانها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: شرك، وبدعة، ومعصية، فينزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة. فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحسن^(١) بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعداً لا يظهر له. كوامنها وقواطعها.

(١) المعنى يستقيم إذا كانت الكلمة «ويحسن» بدلاً من «ويحسن».

فصل والعلائق

وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها وصحبة الناس والتعلق بهم ، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى ، وإلا فقططعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع . فإن النفس لا تترك مألفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه . وكلما قوى تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره . وكذا بالعكس . والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه . وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه .

فصل منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم

لما كمل الرسول صلى الله عليه وسلم مقام الافتقار إلى الله سبحانه أحوج (٢) الخلائق كلهم إليه في الدنيا والآخرة . أما حاجتهم إليه في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشرب والنفس الذي به حياة أبدانهم . وأما حاجتهم إليه في الآخرة فانهم يستشفعون بالرسول إلى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم . فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع هو لهم وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة .

فصل علامات السعادة والشقاوة

من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته . وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره . وكلما زيد

(١) أى الله عز وجل .

فى عمره نقص من حرصه . وكلما زيد فى ماله زيد فى سخائه وبذله .
وكلما زيد قدره وجاهه زيد فى قرينه من الناس وقضاء حوائجهم
والتواضع لهم .

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد فى على علمه زيد فى كبره وتبه ،
وكلما زيد فى عمله زيد فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه ، وكلما
زيد فى عمره زيد فى حرصه ، وكلما زيد فى ماله زيد فى بخله
وإمساكه ، وكلما زيد فى قدره وجاهه زيد فى كبره وتبه وهذه الأمور
ابتلاء من الله وامتحان يبتلى بها عباده فيسعد بها أقوام ويشقى بها
أقوام .

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء ، كالملك والسلطان والمال . قال
تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده :

﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (١) .

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور . كما
أن المحن بلوى منه سبحانه ، فهو يبتلى بالنعم كما يبتلى بالمصائب ، قال
تعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ *
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ * كَلَّا... ﴾ (٢) ،

أى ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكراماً منى
له ، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك اهانة منى له .

(٢) سورة الفجر: الآيات ١٥-١٧ .

(١) سورة النمل: الآية ٤٠ .

فصل

الأعمال بنيان أساسه الإيمان

من أراد علو بنيانه فعليه بتوفيق أساسه وأحكامه وشدة الاعتناء به .
فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وأحكامه . فالأعمال والدرجات
بنيان وأساسها الإيمان ، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى
عليه . وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه ، وإذا كان الأساس غير
وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت ، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط
البنيان أو كاد .

فالعارف همته تصحيح الأساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط . قال
تعالى :

﴿ أَفَمَنْ أَكْسَبَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ نَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارٌ يَهِي فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ﴾ (١) .

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان ، فإذا كانت القوة قوية
حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات ، وإذا كانت القوة ضعيفة
ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء .

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان ، فإذا تشعث شيء من أعالي
البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس . وهذا
الأساس أمران :

الأول : صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته .

والثاني : تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه ، فهذا أوثق أساس
أسس العبد عليه بنيانه وبحسبه يعتلى البناء ما شاء . فأحكم الأساس

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٩ .

وأحفظ القوة ودم على الحمية واستفرغ إذا زاد بك الخط، والقصد
القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة
موجودة والاستفراغ معدوماً:

فأقر السلام على الحياة فانها قد آذنتك بسرعة التوديع
فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حطه
بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرنخ الستور على
أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له
مفتاحاً من ذكر الله به تفتحه وتغلقه. فان فتحت فتحت بالمفتاح وان
أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصناً تحصنت فيه من
أعدائك إذا أطاف به العدو لم يجد منه مدخلاً فيأس منك. ثم تعاود
بناء الحصن كل وقت، فان العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب
نقب عليك النقب من بعيد بمعاول الذنوب، فان أهملت أمره وصل
إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن فيصعب عليك اخراجه،
وتكون معه على ثلاثة خلال: إما أن يغلبك على الحصن ويستولى
عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابله عن تمام
مصلحتك، وتعود إلى سد النقب ولم شعث الحصن. وإذا دخل نقبه
إليك نالك منه ثلاث آفات: إفساد الحصن، والاغارة على حواصله
وذخائره، ودلالة السراق من بنى جنسه على عورته، فلا تزال تبلى منه
بغارة بعد غارة حتى يضعفوا قواك ويوهنوا عزمك فتتخلى عن الحصن
وتخلى بينهم وبينه.

وهذه حال أكثر النفوس مع العدو، ولهذا تراهم يسخطون ربهم برضا
أنفسهم، بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ويضيعون
كسب الدين بكسب الأموال، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم،
ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون في الآخرة وقد

هجمت عليهم ، ويخالفون ربهم باتباع أهوائهم ، ويتكلمون على الحياة ولا يذكرون الموت ، ويذكرون شهواتهم وحظوظهم وينسون ما عهد الله إليهم ، ويهتمون بما ضمنه الله لهم ولا يهتمون بما أمرهم به ، ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها ولا يحزنون على فوات الجنة وما فيها ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار ، ويفسدون حقهم بساطلهم وهداهم بضالهم ومعروفهم بمنكرهم ، ويلبسون إيمانهم بظنونهم ، ويخلطون حلالهم بحرامهم ، ويترددون في حيرة آرائهم وأفكارهم ، ويتركون هدى الله الذى أهدها إليهم . ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن فى هدم حصنه يديه .

فصل أركان الكفر

أركان الكفر أربعة : الكبر والحسد والغضب والشهوة . فالكبر يمنعه الانقياد ، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها ، والغضب يمنعه العدل ، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة . فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد ، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصيح وبذله ، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع ، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة . وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلى بها ، ولا شيا إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة ، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة ولا تزكو نفسه مع قيامها بها . وكلما اجتهد فى العمل أفسدته عليه هذه الأربعة ، وكل الآفات متولدة منها ، وإذا استحكمت فى القلب أثره الباطل فى صورة الحق ، والحق فى صورة الباطل ، والمعروف فى صورة المنكر ، والمنكر فى صورة المعروف ، وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة ، وإذا تأمت كفر الأمم رأيته ناشأ منها وعليها يقع العذاب ، وتكون خفته وشدته بحسب

خفتها وشدتها. فمن فتحتها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلاً وآجلاً، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور، فانه تمنع الانقياد والاخلاص والتوبة والانابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه.

ومنشأ هذه الأربعة من جهله بنفسه، فانه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعموت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات، لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله. فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فانه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، ويجب زوالها عنه والله يكره ذلك. فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبه وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة لأن ذنبه كان عن كبر وحسد. فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والإنابة إليه. وقلع الغضب بمعرفة النفس وأنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها، فإن ذلك يثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها. وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

أما الشهوة فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن أعطاءها شهواتها أعظم الأسباب حرمانها إياها ومنعها منها. وحيثما أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعياً في حرمانها إياها، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعياً في إيصالها إليها على أكمل الوجوه.

فبالغضب مثل السبع إذا أفلته صاحبه بدأ بأكله، والشهوة مثل النار إذا أضرمها صاحبها بدأت باحراقه، والكبر بمنزلة منازعة الملك ملكه فإن لم يهلكك طردك عنه، والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك، والذي

يغلب شهوته وغضبه يفرق (١) الشيطان من ظله ، ومن تغلبه شهوته وغضبه يفرق من خياله .

فصل عظيم النفع

صفات الجهال بالله

الجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقاها يبغضون الله إلى خلقه ، ويقطعون عليهم طريق محبة والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون . ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذى عليها :

فنها : أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة ، وإن طال زمانها وبالعبد وأتى بها بظاهره وباطنه . وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره ، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقى من المحراب إلى الماخور ، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار . ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر . ويروون في ذلك آثراً صحيحة لم يفهموها ، وباطلة لم يقلها المعصوم ، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد ، ويتلون على ذلك قوله تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ .

وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (٣)

ويقسمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة وأنه لم يترك في السماء رقعة في الأرض بقعة إلا وله فيها سجلة أو ركعة ، لكن جنى عليه جانى القدر وسطا عليه الحكم فقلب عينه الطيبة وجعلها أخبث شيء حتى قال بعض عارفيهم : انك ينبغي أن تخاف الله

(١) يفرق : يخاف .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٩٩ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

كما تخاف الأسد الذى يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته إليه .
ويحتجون بقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» . ويروون عن بعض السلف : أكبر الكبائر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله .

وذكر الأمام أحمد (ابن حنبل) عن عون بن عبد الله (١) أو غيره أنه سمع رجلاً يدعو : اللهم لا تؤمنى مكرك ، فأذكر ذلك وقال : قل اللهم لا تجعلنى ممن يأمن مكرك . وبنوا هذا على أصلهم الباطل وهو انكار الحكمة والتعليل والأسباب ، وأن الله لا يفعل الحكمة ولا بسبب وإنما يفعل بمشيئة مجردة من الحكمة والتعليل والسبب ، فلا يفعل لشيء ولا بشيء ، وأنه يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته أشد العذاب ، وينعم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب ، وأن الأمرين بالنسبة إليه سواء ولا يعلم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لا يفعله . فحينئذ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون ، لا لأنه فى نفسه باطل وظلم ، فان الظلم فى نفسه مستحيل فانه غير ممكن . بل هو بمنزلة جعل الجسم الواحد فى مكانين فى آن واحد . والجمع بين الليل والنهار فى ساعة واحدة . وجعل الشيء موجوداً ومعدوماً معاً فى آن واحد . فهذا حقيقة الظلم عندهم . فإذا رجع العامل إلى نفسه قال : من لا يستقر له أمر ولا يؤمن له مكر ، كيف يوثق بالتقرب إليه ؟ وكيف يعول على طاعته واتباع أوامره وليس لنا سوى هذه المدة اليسيرة ؟ فإذا هجرنا فيها اللذات وتركنا

(١) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى «أبو عبد الله الكوفى» من أهل المدينة ، سكن الكوفة ، وكان يقول بالإرجاء ثم رجع عن ذلك . وقال فى ذلك :

لأول ما يفارق غير شك نفارق ما يقول المرجئونا
وقد خرج مع ابن الأشعث ثم هرب وصحب عمر بن عبد العزيز فى خلافته . وتوفى نحو سنة (١١٥هـ = ٧٣٣م) .

الشهوات وتكسلفنا أثقال العبادات وكنا مع ذلك على غير ثقة منه أن يقلب عليها الإيمان كفرةً، والتوحيد شركاً، والطاعة معصية، والبر فجوراً، ويديم علينا العقوبات، كنا خاسرين في الدنيا والآخرة.

فإذا استحكمت هذا الاعتقاد في قلوبهم وتخمر في نفوسهم صاروا إذا أمروا بالطاعات وهجر اللذات بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: معلمك إن كتبت وأحسنيت وتأدبت ولم تبصه ربما أقام لك حجة وعاقبك، وإن كسلت وبطلت وتعطلت وتركت ما أمرك به ربما قربك وأكرمك فيودع بهذا القول قلب الصبي ما لا يثق بعهده إلى وعيد المعلم على الإساءة ولا وعده على الإحسان. وأن كبر الصبي وصلح للمعاملات والمناصب قال له هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيراً أميراً ويأخذ الكيس المحسن لشغله فيخلده في الحبس ويقتله ويصلبه. فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده، وأزال محبته من قلبه وجعله يخاف مخالفة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبة والبريء بالعذاب، فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة، فلا يفعل الخير يستأنس، ولا يفعل الشر يستوحش، وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمري الله العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل. وكتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك ولا سيما القرآن. فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس إليه لصلح العالم صلاحاً لا فساد معه، فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ولا يخاف المحسن لديه

ظلمًا ولا هضمًا^(١)، ولا يخاف بخسا ولا رهقا^(٢)، ولا يضيع عمل محسن أبداً، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها (وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً)، وإن كان مثقال حبة من خردل جنازه بها ولا يضيعها عليه. وأنه يجزى بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزى بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهو الذى أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين وتاب على المذنبين، وهدى الضالين وانقذ المالكين، وعلم الجاهلين، وبصر المتحيرين وذكر الغافلين، وآوى الشاردين. وإذا أوقع عقاباً أوقعه بعد شدة التردد والعتو عليه، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والاقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته والاقرار بربوبيته ووحدانيته أخذه ببعض كفره عتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه وأنه هو الظالم لنفسه كما قال تعالى عن أهل النار:

﴿ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَحُوا لَهَا أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾^(٣)

وقال عن أهلهم فى الدنيا أنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه قالوا:

﴿ يَتَوَلَّوْنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَزَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتَهُمْ حَتَّىٰ جَعَلَتْهُمْ

حَصِيدًا خَلِدِينَ ﴾^(٤)

وقال أصحاب الجنة^(٥) التى أفسدها عليهم لما رأوها:

(١) هضم حقه: نقصه.

(٢) أى لا يخاف نقصاً فى الثواب ولا ظلماً. والرهق: حمل الإنسان ما لا يطيق.

(٣) سورة الملك: الآية ١١. (٤) سورة الأنبياء: الآية ١٤ - ١٥.

(٥) أى الحديقة (البستان).

﴿ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (١)

وقال الحسن لقد دخلوا النار وأن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلا.. ولهذا قال تعالى:

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

فهذه الجملة في موضع الحال أى قطع دابرهم حال كونه سبحانه محمودا على ذلك فقطع دابرهم قطعاً مصاحباً لحمده، فهو قطع واهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكامل حكمته وعدله ووضعه العقوبة في موضعها الذى لا يليق به غيرها. فوضعها في الوضع الذى يقول من علم الحال: لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولا يليق به إلا العقوبة، ولهذا قال عقيب أخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاء إلى النار:

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣)

فحذف فاعل القول أشعرا بالعموم وأن الكون كله قال: «الحمد لله رب العالمين» لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله. ولهذا قال في حق أهل النار:

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ (٤)

كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم ورأضهم وسماؤهم، وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه انجى أوليائه ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٥.

(٤) سورة الزمر: الآية ٧٢.

(١) سورة القلم: الآية ٢٩.

(٣) سورة الزمر: الآية ٧٥.

أنى أغرقه بمحض مشيئتي وإرادته بلا سبب ولا ذنب . وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين فى سبيله ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم .

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه ، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه ، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه ، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به ودفعه وردة فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه ، وأنه سبحانه لو علم فى تلك المحال التى حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها ، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته الفاسقين والظالمين ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين ولا يركس فى الفتنة (١) ألا وقد أراح سبحانه العلل وأقام الحجج ومكن من أسباب الهداية وأنه لا يضل إلا المنافقين بكسبهم ، وأن الرين (٢) الذى غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣)

وقال عن أعدائه من اليهود :

﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ (٤)

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقى ، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغى على الرشاد ، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه .

مكر الله عز وجل

وأما المكر الذى وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه

(٢) الرين : ما غطى القلب من شر ودنس .

(٤) سورة النساء : الآية ١٥٥ .

(١) أى يعبد إلى الضلال والفتنة .

(٣) سورة المطففين : الآية ١٤ .

ورسله ، فيقابل مكرهم السيء بمكره الحسن ، فيكون المكر منهم أقيح شيء ومنه أحسن شيء لأنه عدل ومجازاة . وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه ، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر .

وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس ، ولو كان عملاً صالحاً مقبولاً للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه . وقوله لم يبق بينه وبينها إلا ذراع يشكل على هذا التأويل ، فيقال : لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له ، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خذل بها في آخر عمره فخانتته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع إلى موجبها وعملت عملها ، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه ، لقد أوردته مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضى إفساده عليه ، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض .

وأما شأن إبليس : فإن الله سبحانه قال للملائكة :

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة ، فلما أمروا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا إلى الامتثال ، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

وأما خوف أوليائه من مكره فحق ، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء ، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته ، وقوله :

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ (١)

إنما هو فى حق الفجار والكفار. ومعنى الآية : فلا يعصى ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون. والذى يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة (٢).

وأمر آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره فيتخلى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمون من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون.

وأمر آخر: أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه، فيفتنون به، وذلك مكر.

فصل

شجرة الاخلاص

السنة شجرة والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها والأنفاس ثمرها. فمن كانت أنفاسه فى طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت فى معصية فثمرته حنظل. وأما يكون الجداد (٣) يوم المعاد، فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها.

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٩. (٢) أى فجأة.

(٣) أى قطف الثمر.

والاخلاص والتوحيد شجرة فى القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة فى الدنيا والنعم المقيم فى الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والاخلاص فى الدنيا كذلك.

والشرك والكذب والرياء شجرة فى القلب ثمرها فى الدنيا الخوف والهجم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها فى الآخرة الزقوم والعذاب المقيم. وقد ذكر الله هاتين الشجرتين فى سورة إبراهيم.

فصل

مراتب السعادة

إذا بلغ العبد أعطى عهده الذى عهده إليه خالقه ومالكه..، فإذا أخذ عهده بقوة وقبول وعزم على تنفيذ ما فيه صلح للمراتب والمناصب التى يصلح لها الموفون بعهودهم، فإذا هز نفسه عند أخذ العهد وانتحاه^(١) وقال قد أهلت لعهد ربى فن أولى بقبوله وفهمه وتنفيذه منى؟ فحرص أولاً على فهم عهده وتدبره وتعرفه وصايا سيده له، ثم وطن نفسه على امتثال ما فى عهده والعمل به وتنفيذه حسبما تضمنه عهده، فأبصر بقلبه حقيقة العهد وما تضمنه، فاستحدث همة أخرى وعزيمة غير العزيمة التى كان فيها وقت الصبا، قبل وصول العهد، فاستقال من ظلمة غرة الصبا والانقياد للعادة والمنشأ، وصبر على شرف الهمة وهتك ستر الظلمة إلى نور اليقين، فأدرك بقدر صبره وصدق اجتهاده ما وهبه الله له من فضله.

فأول مراتب سعادته أن تكون له أذن واعية، وقلب يعقل ماتعيه الأذن. فإذا سمع وعقل واستبانته له الجادة ورأى عليها تلك الأعلام،

(١) فى القاموس «انتحاه»: قصده. وانتحى الجمل: اعتمد فى سيره على أسره. ونحى وانتحى بالخاء المعجمة: افتخر وتعظم، وفلاناً: مدحه. أهد. والظاهر أن الصواب هنا: وانتحاه. ويكون المعنى: أثارها وألهبها نشاطاً وعزيمة.

ورأى أكثر الناس منحرفين عنها يميننا وشمالا فلزمها ولم ينحرف مع المنحرفين الذين كان سبب انحرافهم عدم قبول العهد أو قبلوه بكره ولم يأخذوه بقوة ولا عزيمة ولا حدثوا أنفسهم بفهمه وتدبره والعمل بما فيه وتنفيذ وصاياه ، بل عرض عليهم العهد ومعهم ضراوة الصبا ودين العادة وما ألفوا عليه الآباء والأمهات ، فتلقوا العهد تلقى من هو مكتف بما وجد عليه آباءه وسلفه ، وعادتهم لا تكفى من يجمع همه وقلبه على فهم العهد والعمل به ، حتى كأن ذلك العهد أناه وحده وقيل له تأمل ما فيه ثم اعمل بموجبه ، فإذا لم يتلق عهدا هذا التلقى أخذ إلى سيرة القرابة وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده ، فإن علت همته أخذ إلى ما عليه سلفه ومن تقدمه من غير التفات إلى تدبر العهد وفهمه فرضى لنفسه أن يكون دينه دين العادة ، فإذا شامه الشيطان^(١) ورأى هذا مبلغ همته وعزيمته ، رماه بالعصية والحمية للآباء وسلفه وزين له أن هذا هو الحق وما خالفه باطل ، ومثل له الهدى فى صورة الضلال والضلال فى صورة الهدى ، بتلك العصية والحمية التى أسست على غير علم ، فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه له ما لهم وعليه ما عليهم ، فخذل عن الهدى وولاه الله ما تولى ، فلو جاءه كل هدى يخالف قومه وعشيرته لم يره إلا ضلالة . وإذا كانت همته أعلى من ذلك ونفسه أشرف وقدرة أعلى ، أقبل على حفظ عهد وفهمه وتدبره ، وعلم أن لصاحب العهد شأنا ليس كشأن غيره ، فأخذ نفسه بمعرفة من نفس العهد ، فوجده قد تعرف إليه وعرفه نفسه وصفاته وأسماءه وأفعاله وأحكامه ، فعرف من ذلك العهد قيوما بنفسه مقيا لغيره غنيا عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه مستو على عرشه فوق جميع خلقه ، يرى ويسمع ويرضى ويغضب ويحب ويبغض ويدبر أمر مملكته ، وهو فوق عرشه متكلم آمرناه يرسل رسله إلى أقطار مملكته بكلامه الذى يسمعه

(١) أى نحن وقد ربلغ همته .

من يشاء من خلقه ، وأنه قائم بالقسط يحاز بالإحسان والاساءة ، وأنه حلیم غفور شكور جواد محسن موصوف بكل كمال منزّه عن كل عيب ونقص وأنه لا مثل له . ويشهد حكمته في تدبير مملكته وكيف يقدر مقاديره بمشيئته غير مضادة لعدله وحكمته ، وتظاهر عنده العقل والشرع والفترة فصدق كل منها صاحبيه وفهم عن الله سبحانه ما وصف به نفسه في كتابه من حقائق أسمائه التي بها نزل الكتاب وبها نطق ولها أثبت وحقق ، وبها تعرف إلى عباده حتى أقرت به العقول وشهدت به الفطر.

فإذا عرف بقلبه وتيقن صفات صاحب العهد أشرقت أنوارها على قلبه فصارت له كالמעينة ، فرأى حينئذ تعلقها بالخلق والأمر وارتباطها بها وسريان آثارها في العالم الحسى والعالم الروحى ، ورأى تصرفها في الخلائق كيف عمت وخصت وقربت وأبعدت وأعطت ومنعت ، فشاهد بقلبه مواقع عدله سبحانه وقسطه وفضله ورحمته ، واجتمع له الايمان بلزوم حاجته مع نفوذ أقضيته وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته ونهاية علوه على جميع خلقه مع احاطته ومعيته وعظمته وجلاله وكبريائه وبطشه وانتقامه مع رحمته وبره ولطفه وجوده وعفوه وحلمه . ورأى لزوم الحجة مع قهر المقادير التي لا خروج لمخلوق عنها . وكيف اصطحاب الصفات وتوافقها وشهادة بعضها لبعض ، وانعطاف الحكمة التي هي نهاية وغاية المقادير التي هي أول وبداية . ورجوع فروعها إلى أصولها ومبادئها إلى غاياتها حتى كأنه مشاهد مبادئ الحكمة ، وتأسيس القضايا على وفق الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة والاحسان ، لا تخرج قضية عن ذلك إلى انقضاء الأكوان وانفصال الأحكام يوم الفصل بين العباد وظهور عدله وحكمته وصدق رسله وما أخبرت به عنه لجميع الخليقة ، انسها وجنّها ، مؤمنها وكافرها .

وحينئذ يتبين من صفات جلاله ونعوت كماله للخلق ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، حتى أن أعرف خلقه به في الدنيا يشئ عليه يومئذ من صفات كماله ونعوت جلاله ما لم يكن يحسنه في الدنيا، وكما يظهر ذلك لخلقهم تظهر لهم الأسباب التي بها زاغ الزائغون وضل الضالون وانقطع المنقطعون، فيكون الفرق بين العلم يومئذ بحقائق الأسماء والصفات والعلم بها في الدنيا كالفرق بين العلم بالجنة والنار ومشاهدتهما وأعظم من ذلك.

وكذلك يفهم من العهد كيف اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع وألا يترك خلقه سدى، وكيف اقتضت ماتضمنته من الأوامر والنواهي، وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد، وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته بحيث ينزه عما زعم أعداؤه من انكار ذلك، ويرى شمول القدرة واحاطتها بجميع الكائنات حتى لا يشذ عنها مثقال ذرة، ويرى أنه لو كان معه اله آخر لفسد هذا العالم فكانت تفسد السموات والأرض ومن فيهن، وأنه سبحانه لو جاز عليه النوم أو الموت لشدكذك^(١) هذا العالم بتأسره ولم يثبت طرفه عين. ويرى مع ذلك الاسلام والايمان اللذين تعبد الله بهما جميع عباده كيف انبعثتهما من الصفات المقدسة، وكيف اقتضيا الثواب والعقاب عاجلا وآجلا. ويرى مع ذلك أنه لا يستقيم قبول هذا العهد والتزامه لمن جحد صفاته وأنكر علوه على خلقه وتكلمه بكتبه وعهوده، كما لا يستقيم قبوله لمن أنكر حقيقة سمعه وبصره وحياته وإرادته وقدرته، وأن هؤلاء هم الذين ردوا شهنده وأبوا قبوله، وأن من قبله منهم لم يقبله بجميع ما فيه، وبالله التوفيق.

(١) أي يهدم وانهار.

فصل الجسد والروح

خلق بدن ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما. فإذا أجماع بدنه وأسهره وأقامه في الخلعة وجدت روحه خفة وراحة فتناقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوى. وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه فانحذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولوا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعبذ.

وبالجملة، فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوى. وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك، فيكون نائماً على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش، وآخر واقف في الخلعة وبدنه وروحه في السفلى تجول حول السفليات. فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرّة عين وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة، عند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكلة ومعيشة ضنك، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ (١)

فذكره كلامه الذي أنزله على رسوله والاعراض عنه ترك تدبره والعمل به. والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير: أنها عذاب القبر، قاله

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس، وفيه حديث مرفوع .

وأصل الضنك فى اللغة : الضيق والشدة ، وكل ماضاق فهو ضنك ، يقال : منزل ضنك وعيش ضنك ، فهذه المعيشة الضنك ، فى مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة . فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكا ، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح . فضنك المعيشة فى الدنيا بموجب التقوى سعتها فى البرزخ والآخرة ، وسعة المعيشة فى الدنيا بحكم الهوى ضنكها فى البرزخ والآخرة . فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما ، وأشق البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن ، فأن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم ، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون ، والله المستعان .

ترك الذنوب أولا

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا فإنهم لا يقدرّون على تركها ، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة . فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة ! فإن صعب عليهم ترك الذنوب فأجتهّد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وأنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله ، فإن القلوب مفعورة على محبته . فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاصرار عليها والاستقلال منها . وقد قال يحيى بن معاذ : « طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها » .

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الاجابة ، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الاجابة . فإن الفطام عن الشدى الذى ما عقل الانسان نفسه إلا وهو يرتضع منه ، شديد ،

ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن ، فإن اللبن تأثيراً فى طبيعة المرتضع ، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحق الولد . وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة ، فإن قويت على مرارة الفطام وألا فارتضع بقدر فإن من البشم (١) ما يقتل .

فصل

ثلاث فوائد

* بين رعاية الحقوق مع الضر ورعايتها مع العافية بون بعيد .

* ان عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه (٢) :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣)

* ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة ، انما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال وتختلف عليه الأحوال وقلبه واقف فى الخدمة غير متخلف بما يقدر عليه .

فصل

معرفة الله

معرفة الله سبحانه نوعان ، الأول : معرفة اقرار وهى التى اشترك فيها الناس البر والفاجر والطيع والعاصى . والثانى : معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والانابة إليه

(١) البشم : التهمة .

(٢) قرن الإنسان : هو الذى يكافئه فى المقدرة والشجاعة .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٤٥ .

والآنس به والفرار من الخلق إليه . وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم وتفاوتهم فيها لا يخصيه إلا الذى عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها ، وقد قال أعرف الخلق به (١) : «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ، وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن .

ولهذه المعرفة بابان واسعان :

الباب الأول : التفكير والتأمل فى آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله .

والباب الثانى : التفكير فى آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه . وجماع ذلك : الفقه فى معانى أسمائه الحسنى وجلالها وكماها وتفرد به بذلك وتعلقها بالخلق والأمر ، فيكون فقيها فى أوامره ونواهيه ، فقيها فى قضائه وقدره ، فقيها فى أسمائه وصفاته ، فقيها فى الحكم الدينى الشرعى والحكم الكونى القدرى ، و«وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» .

فصل

أفضل الكسب وشره

الدراهم أربعة : درهم اكتسب بطاعة الله وأخرج فى خق الله فذاك خير الدراهم ، ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج فى معصية الله فذاك شر الدراهم ، ودرهم أكتسب بأذى مسلم وأخرج فى أذى مسلم فهو كذلك ، ودرهم اكتسب بمباح وأنفق فى شهوة مباحة فذاك لاله ولا عليه .

(١) أى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه أصول الدراهم ، ويتفرع عليها دراهم أخرى: منها درهم اكتسب بحق وأنفق فى باطل ، ودرهم اكتسب بباطل وأنفق فى حق فانفاقه كفارته ، ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق فى طاعة . وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذم باخراج الدرهم فكذلك يتعلق باكتسابه . وكذلك يسأل عن مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه وفيما أنفقه .

فصل

مواساة المؤمنين

المواساة للمؤمنين أنواع: مواساة بالمال ، ومواساة بالجاء ، ومواساة بالبدن والخدمة ، ومواساة بالنصيحة والارشاد ، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم ، ومواساة بالتوجع لهم . وعلى قدر الايمان تكون هذه المواساة . فكلمة ضعف الإيمان ضعفت المواساة ، وكلما قوى قوى . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله ، فلا تبايعه من المواساة بحسب اتباعهم له .

ودخلوا على بشر الخافى فى يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض ، فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لى ما أواسيهم ، فأجبت أن أواسيهم فى بردهم .

فصل

الجهل يوجب التعب

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة ، فإن صاحبه إما أن يجتهد فى نافلة مع إضاعة الفرض أو فى عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب ، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد

بالاقتداء، أوهمة إلى عمل لم ترق بصاحبها إلى ملاحظة المقصود، أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده، أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه، أو عمل لم يوفه حقه من النصيح والاحسان وهو يظن أنه وفاه، فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب، والله الموفق.

فصل

الرحلة إلى الله وما يعترضها

إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخواص والقواطع، فينخدع أولا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس. فإن وقف معها انقطع وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتلى بوطء عقبه^(١) وتقبيل يده والتوسعة له في المجلس والاشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك. فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلى بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلى بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا. فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظرا إلى مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الامكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راجتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره. فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة، وبالله التوفيق.

(١) أى بالسير خلفه.

فصل أنواع النعم

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيدا يقيدها به حتى لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر. ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها. وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابيا دخل على الرشيد، فقال: أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بادامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به وداوم طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لشكرها. فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسن تقسيمه.

قاعدة جلية مبدأ كل علم وعمل

مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الارادات تقتضى وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطى العادة. فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها. فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها والهها صاعدة إليه دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه واعراضه عنه كل ضلال وشقاء. فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر اثبات عين فكرته فى آلائه ونعمه وتوحيده وطرق معرفته وطرق عبوديته وانزاله اياه حاضرا معه مشاهدا له ناظرا إليه

رقيباً عليه مطلعاً على خواطره وأرادته وهمه . فحينئذ يستحيى منه ويجله أن يطلعه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله أو يرى في نفسه خاطراً يمتته عليه .

فتى أنزل ربه هذه المنزلة منه رفعه وقربه منه ، وأكرمه واجتبهه ووالاه ، وبقدر ذلك يبعد عن الأوساخ والدنساءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة . كما أنه كلما بعد منه وأعرض عنه قرب من الأوساخ والدنساءات والأفذار ، ويقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص .

فالإنسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه وعمل بمريضاته وآثر على هواه . وشر المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته . فتى اختار التقرب إليه وآثره على نفسه وأهواه فقد حكم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه ، وحكم رشده على غيه وهواه على هواه . ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده .

الخطرات والوساوس

وأعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر ، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل ، فتستحكم فتصير عادة ، فردها إلى مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها .

ومعلوم أنه لم يعط الإنسان أمانة الخواطر ولا القوة على قطعها فإنها تهجم عليه هجوم النفس ، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له ، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ونفرتة منه كما قال الصحابة : « يا رسول الله ، إن أحداً يجد في نفسه ما لأن

يحترق حتى يصير حممة (١) أحب إليه من أن يتكلم به ، فقال : أوقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : ذلك صريح الايمان (٢) . وفى لفظ : « الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » وفيه قولان ، أحدهما : أن رده وكراهته صريح الايمان . والثانى : أن وجوده والقاء الشيطان له فى النفس صريح الايمان ، فإنه انما ألقاه فى النفس طلبا لمعارضة الايمان وازالته به .

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التى لا تسكن ولا بد لها من شىء تطحنه ، فإن وضع فيها حب طحنته ، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته ، فالأفكار والخواطر التى تجول فى النفس هى بمنزلة الحب الذى يوضع فى الرحى ، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط ، بل لا بد لها من شىء يوضع فيها ، فن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره ، وأكثرهم يطحن رملا وحصى وتبنا ونحو ذلك ، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحنه .

فصل

القلب لا يخلو من الأفكار

فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعثه ، وإن قبلته صار فكرا جوالا فاستخدم الارادة فتساعدت هى والفكر على استخدام الجوارح فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب (٣) بالتمنى والشهوة وتوجهه إلى جهة المراد . ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من اصلاح الأفكار ، واصلاح الأفكار أسهل من اصلاح الارادات ، واصلاح الارادات أسهل من تدارك فساد العمل ، وتداركه أسهل من قطع العوائد . فأنفع الدواء

(١) الحممة : الفحمة ، وجمعها حمم .

(٢) أخرجه مسلم فى باب الإيمان ، وأبو داود فى كتاب الأدب .

(٣) يقصد بالقلب : الفؤاد .

أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعينك دون ما لا يعينك ، فالفكر فيما لا يعنى باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن انفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه ، فالفكر والخواطر والارادة والهمة أحق شىء باصلاحه من نفسك ، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التى لا تبتعد بها أوتقرب من الهك ومعبودك الذى لا سعادة لك الا فى قربيه ورضاه عنك ، وكل الشقاء فى بعدك عنه وسخطه عليك ، ومن كان فى خواطره ومجالات فكره دنيئا خسيسا لم يكن فى سائر أمره إلا كذلك .

وإياك أن تتمكن الشيطان من بيت أفكارك وارادتك فإنه يفسدها عليك فسادا يصعب تداركه ، ويلقى إليك أنواع البسوس والأفكار المضرة ، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك ، وأنت الذى أعتته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فلكها عليك . فثالك معه مثال صاحب ربحى يطحن فيها جيد الحبوب ، فأثاه شخص معه حمل تراب وبعير وفحم وغشاء ليطحنه فى طاحونته ، فإن طرده ولم يمكنه من القاء مامعه فى الطاحون استمر على طحن ما ينفعه ، وإن مكته من القاء ذلك فى الطاحون أفسد ما فيها من الحب وخرج الطحين كله فاسدا . والذى يلقيه الشيطان فى النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل فى الوجود لو كان على خلاف ذلك ، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، أوفيا يملك الفكر فيه من أنواع الفواحش والحرام أوفى خيالات وهمية لا حقيقة لها أوفى باطل أوفيا لا سبيل إلى ادراكه من أنواع ما طوى عنه علمه فيسقيه فى تلك الخواطر التى لا يبلغ منها غاية ولا يقف منها على نهاية فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه .

وجماع اصلاح ذلك : أن تشغل فكرك فى باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه ، وفى الموت وما بعده إلى دخول الجنة والنار . وفى آفات الأعمال وطرق التحرز منها . وفى باب

الارادات والعزوم أن تشغل نفسك بارادة ماينفعك ارادته وطرح ارادة ما يضررك ارادته . وعند العارفين أن تمنى الخيانة واشغال الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة ، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها ، فإن تمنى يشغل القلب ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده .

وأنت تجد فى الشاهد أن الملك من البشر إذا كان فى بعض حاشيته وخدمه من هو متمن لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلىء منها ، وهو مع ذلك فى خدمته وقضاء أشغاله ، فإذا أطلع على سره وقصده مقتته غاية المقت وأبغضه وقابله بما يستحقه ، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه جنى بعض الجنايات وقلبه وسره مع الملك غير منطو على تمنى الخيانة ومحبتها والحرص عليها ، فالأول يتركها عجزا واشتغالا بما هو فيه وقلبه ممتلىء بها ، والثانى يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه اضممار الخيانة ولا الاصرار عليها ، فهذا أحسن حالا وأسلم عاقبة من الأول .

وبالجملة ، فالقلب لا يخلو قط من الفكر إما فى واجب آخرته ومصالحها ، وإما فى مصالح دنياه ومعاشه ، وإما فى الوسوس والأمانى الباطلة والمقدرات المفروضة . وقد تقدم أن النفس مثلها كمثلى رضى تدور بما يلقى فيها ، فإن ألقى فيها حبا دارت به وأن ألقى فيها زجاجة وحصى وبعرا دارت به ، والله سبحانه هو قيم (١) تلك الرضى ومالكها ومصرفها وقد أقام لها ملكا يلقى فيها ماينفعها فتدور به ، وشيطانا يلقى فيها ما يضرها فتدور به ، فالملك يلم بها مرة والشيطان يلم بها مرة ، فالحب الذى يلقى به الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ، والحب الذى يلقى به الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد . والطحين على قدر الحب ، وصاحب الحب المضر لا يتمكن من القائه إلا إذا وجد الرضى فارغة من

(١) أى المسئول عنها .

الحب وقيمها قد أهملها وأعرض عنها ، فحينئذ يبادر إلى القاء مامعه فيها .

وبالجملة ، فقيم الرحي إذا تخطى عنها وعن اصلاحها والقاء الحب النافع فيها وجد العدو السبيل إلى إفسادها وادارتها بما معه . وأصل صلاح هذه الرحي بالاشتغال بما يعينك ، وفسادها كله في الاشتغال بما لا يعينك ، وما أحسن ما قال بعض العقلاء : لما وجدت أنواع الذخائر منصوبة غرضاً للمتألف ، ورأيت الزوال حاكماً عليها مدركاً لها ، انصرفت عن جميعها إلى ما لا ينازع فيه ذو الحجا (العقل) أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر ، والله المستعان .

شرف النفس

قال شقيق بن إبراهيم^(١) : اغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء : اشتغالهم بالنعمة عن شكرها ، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل ، والمسارة إلى الذنب وتأخير التوبة ، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم ، وادبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها ، واقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها .

قلت : وأصل ذلك عدم الرغبة والرغبة ، وأصله ضعف اليقين ، وأصله ضعف البصيرة ، وأصله مهانة النفس ودنائها واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير . والا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون . فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيته وشرف النفس ونبلها وكبرها . وأصل الشر خستها ودنائها وصغرها ، قال تعالى :

(١) هو شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي ، البلخي «أبو علي» . من كبار مشايخ الطرق الصوفية في خراسان . ولعله أول من تكلم في علوم الأحوال (الصوفية) بكورخواسان . أخذ الفقه عن أبي حنيفة وغيره . من أقواله : «إذا صار الفقير يخاف من الغنى كما يخاف من الفقر فقد تم زهده» . وقد كان إلى ذلك مجاهداً استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر) سنة (١٩٤ هـ = ٨١٠ م) .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١)

أى أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله.

فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدتها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناعات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقدار. فالنفوس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة، لأنها أكبر من ذلك وأجل. والنفوس المهينة الحقيمة الخسيسة بالضد من ذلك. فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ (٢)

أى على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التى تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل انسان يجرى على طريقته ومذهبه وعاداته التى ألفها وجبل عليها. فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والاعراض عن المنعم. والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبة والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه واجلاله.

فصل

لا يعرف خالقه من لا يعرف نفسه

من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه؟ فاعلم أن الله تعالى خلق فى صدرك بيتا وهو القلب، ووضع فى صدره عرشا لمعرفته يستوى عليه المثل الأعلى فهو مستو على عرشه بذاته بائن من خلقه. والمثل الأعلى من معرفته ومحبه وتوحيده مستو على سرير القلب وعلى السرير بساط من

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٤.

(١) سورة الشمس: الآية ٩ - ١٠.

الرضا. ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره وفتح إليه بابا من جنة رحمته والأنس به والشوق إلى لقائه، وأمطره من وابل كلامه ما أثبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس، وجعل في وسط البستان شجرة معرفة، فهي تؤتي أكلها كل حين باذن ربها من المحبة والائابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه. وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه. وعلق في ذلك البيت قنديلا أسرجه بضياء معرفته والايمان به وتوحيده. فهو يستمد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. ثم أحاط عليه حائطاً يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومن يؤذى البستان فلا يلحقه أذاهم. وأقام عليه حرساً من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه، ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه، فهو دائماً همهم اصلاح السكّن ولم شعته ليرضاه الساكن منزلاً. وإذا أحس بأدنى شعث في السكّن بادر إلى اصلاحه وله خشية انتقال الساكن منه، فنعم الساكن ونعم السكّن.

فسبحان الله رب العالمين، كم بين هذا البيت وبيت قد استولى عليه الخراب وصار مأوى للحشرات والهموم ومحلاً للقاء الأتّان والقاذورات فيه. فن أراد التخلّى وقضاء الحاجة وجد خربة لاساكن فيها ولا حافظ لها وهي معدة لقضاء الحاجة مظلمة الأرجاء منتنة الرائحة قد عمها الخراب وملأتها القاذورات، فلا يأنس بها ولا ينزل فيها إلا من يناسبه سكنهاها من الحشرات والديدان والهموم. الشيطان جالس على سريرها وعلى السرير بساط من الجهل وتخفق فيه الأهواء وعن يمينه وشماله مرافق الشهوات. وقد فتح إليه باب من حقل الخذلان والوحشة والركون إلى الدنيا والطمأنينة بها والزهد في الآخرة، وأمطر من وابل الحل والهموم والشرك والبدع ما أثبت فيه أصناف الشوك والحنظل

والأشجار المثمرة بأنواع المعاصى والمخالفات من الزوائد والتنديبات والنوادر والهزليات والمضحكات والأشعار الغزليات، والخمریات التي تهيج على ارتكاب المحرمات وتزهّد في الطاعات. وجعل في وسط الحقل شجرة الجهل به والاعراض عنه، فهي تؤتى أكلها كل حين من الفسوق والمعاصى واللهو واللعب والمجون والذهاب مع كل ريح واتباع كل شهوة. ومن ثمرها الهموم والغموم والأحزان والآلام. ولكنها متوارة باشتغال النفس بلهوها ولعبها، فإذا أفاقت من سكرها أحضرت كل هم وغم وحزن وقلق ومعيشة ضنك، وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من اتباع الهوى وطول الأمل والغرور.

ثم ترك ذلك البيت وظلماته وخراب حيطانه بحيث لا يمنع منه مفسد ولا حيوان ولا مؤذ ولا قذر، فسبحان خالق هذا البيت وذلك البيت، فن عرف بيته وقدر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات انتفع بحياته ونفسه، ومن جهل ذلك جهل نفسه وأضاع سعادته، وبالله التوفيق.

سئل سهل التستري: الرجل يأكل في اليوم أكلة؟ قال: أكل الصديقين، قيل له: فاكلتين؟ قال: أكل المؤمنين، قيل له: فثلاث أكالات؟ فقال: قل لأهله يبنوا له معلقا.

قال الأسود بن سالم: ركعتين أصليهما لله أحب إلى من الجنة بما فيها. فقيل له: هذا خطأ، فقال: دعونا من كلامكم، الجنة رضا نفسى والركعتان رضا ربى، ورضا ربى أحب إلى من رضا نفسى.

* العارف فى الأرض ربحانة من رباحين الجنة، إذا شمها المرید^(١) اشتاقت نفسه إلى الجنة.

* قلب المحب موضوع بين جلال محبوبه وجماله، فإذا لاحظ جلاله هابه وعظمه، وإذا لاحظ جماله أحبه واشتاق إليه.

(١) كلمة وصف للصوفى.

فائدة

مراتب معرفة الله

من الناس من يعرف الله بالجود والأفضال والاحسان ، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز ، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة ، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء ، ومنهم من يعرفه بالرحمن والبر واللطف ومنهم من يعرفه بالقهر والملك ، ومنهم من يعرفه باجابة دعوته واغاثة لهفته وقضاء حاجته .

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه ، فإنه يعرف ربا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال ، منزّه عن المثال ، برىء من النقائص والعيوب ، له كل اسم حسن وكل وصف كمال ، فعال لما يريد ، فوق كل شيء ومع كل شيء ، وقادر على كل شيء ، ومقيم لكل شيء ، أمرناه متكلم بكلماته الدينية والكونية ، أكبر من كل شيء وأجل من كل شيء ، أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين . فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصل إليه وبحال السالكين بعد الوصول إليه .

فائدة

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد فى نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له ، فيملها ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها ، وربه برحمته لا يخرج من تلك النعمة ، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه ، حتى إذا ضاق ذرعا بتلك النعمة وسخطها وتبرم بها واستحکم ملله لها سلبه الله إياها . فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه ، اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان

فيه ، فإذا أراد الله بعبده خيرا ورشدا أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه ، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها ، مفوض إلى الله طالب منه حسن اختياره له .

وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله ، فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها ، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة . هذا وهى من أعظم نعم الله عليه ، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه ، وهم مجتهدون فى دفعها وردّها جهلا وظلما . فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساع فى ردّها بجهد ، وكم وصلت إليه وهو ساع فى دفعها وزوالها بظلمه وجهله ، قال تعالى :

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢)
فليس للنعم أعدى من نفس العبد ، فهو مع عدوه ظهير على نفسه ، فعنوه يطرح النار فى نعمه وهو ينفخ فيها ، فهو الذى مكنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ ، فإذا اشتد ضرامها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار :

وعاجز الرأى مضىاع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فصل

جمال الله عز وجل

من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال ، وهى معرفة

(٢) سورة الرعد: الآية ١١ .

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٣ .

خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت المطلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جلالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفى في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحانه (١) ما انتهى إليه بصره من خلقه. ويكفى في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فن آثار صنعتها، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفى في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً والجلود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الطائف (٢): «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة».

وقال عبد الله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

ومن أسمائه الحسنى «الجميل». وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله جميل يحب الجمال» (٣).

وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء. فأسماءه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة. وأما جمال الذات وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره، وليس عند

(١) أى أنواره.

(٢) لمزيد من الاطلاع على قصة دعاء الطائف راجع مختصر سيرة ابن هشام، ص ٨١-٨٢.

(٣) رواه مسلم، وابن ماجه، وأحمد بن حنبل.

المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمهم من عباده ، فان ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والإزار كما قال رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عنه : «الكبرياء ردائي والعظمة ازارى» . ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء ، فانه سبحانه الكبير المتعال فهو سبحانه العلى العظيم .

قال ابن عباس : حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال ، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال وستر بنعوت العظمة والجلال .

ومن هذا المعنى يفهم بعض معانى جمال ذاته ، فان العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات ، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات . فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات .

ومن هنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله وأن أحداً من خلقه لا يحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وأنه يستحق أن يعبد لذاته ويحب لذاته ويشكر لذاته ، وأنه سبحانه يحب نفسه ويثنى على نفسه ويحمد نفسه ، وأن محبته لنفسه وحده لنفسه وثناءه على نفسه وتوحيده لنفسه هو فى الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد ، فهو سبحانه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى به عليه خلقه ، وهو سبحانه كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله ، فكل أفعاله حسن محبوب وإن كان فى مفعولاته (مخلوقاته) ما يبغضه ويكرهه ، فليس فى أفعاله ما هو مكروه مسخوط ، وليس فى الوجود ما يحب لذاته ويحمد لذاته إلا هو سبحانه ، وكل ما يحب سواه فإن كانت محبته تابعة لمحبهه سبحانه بحيث يحب لأجله فمحبته صحيحة وإلا فهي محبة باطلة ، وهذا هو حقيقة الالهية ، فإن الإله الحق هو الذى يحب لذاته ويحمد لذاته . فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وانعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبره ورحمته ؟ .

فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله فيحبه ويحمده لذاته وكماله ، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو فيحبه لإحسانه وانعامه ويحمده على ذلك فيحبه من الوجهين جميعاً . وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة . والمحبة مع الخضوع هي العبودية التى خلق الخلق لأجلها ، فانها غاية الحب بغاية الدل ، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه . والاشراك به فى هذا هو الشرك الذى لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملاً .

وحمده يتضمن أصليين : الاخبار بمحامده وصفات كماله ، والمحبة له عليها . فن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً . ومن أحبه من غير اخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين ، وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه ، ويحمد نفسه بما يجريه على السنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا ، فإن حمدهم له بمشيئته وادنه وتكوينه ، فإنه هو الذى جعل الحامد حامداً والمسلم مسلماً والمصلى مصلياً والتائب تائباً ، فنه ابتدأت النعم وإليه انتهت فابتدأت بحمده وانتهت إلى حمده ، وهو الذى ألهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فرح ، وهى من فضله وجوده . وألهم عبده الطاعة وأعانه عليها ثم أثابه عليها وهى من فضله وجوده وهو سبحانه غنى عن كل ما سواه بكل وجه ، وما سواه فقير إليه بكل وجه ، والعبد مفتقر إليه لذاته فى الأسباب والغايات ، فان ما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع .

فصل

الله جميل يحب الجمال

وقوله فى الحديث : «إن الله جميل يحب الجمال» يتناول جمال الشياىب المسئول عنه فى نفس الحديث . ويدخل فيه بطريق العموم

الجمال من كل شيء كما في الحديث الآخر: «إن الله نظيف يحب النظافة». وفي الصحيح: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً». وفي السنن: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وفيها عن أبي الأحوص الجشمي، قال: «رأى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أطمار^(١)، فقال: هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاء، قال: فلتر نعمته وكرامته عليك».

فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فانه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها. ومحبه سبحانه للجمال أنزل على عباده لباساً وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم فقال:

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْوَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (٢)،

وقال في أهل الجنة:

﴿وَلَقَدْ هَمَمْنَا نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (٣)،

فجعل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحريز، وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والسياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله. ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا كل ما خلقه جميل فهو يحب كل ما خلقه ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض

(١) الأطمار: الثياب البالية.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٣) سورة الإنسان: الآيات ١١-١٢.

منه شيئاً، قالوا: ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جملة. وأنشد
منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوى الوجود ملتح
واحتجوا بقوله تعالى:

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ﴾ (١)

وقوله: ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾ (٣)

والعارف عندهم هو الذى يصرح باطلاق الجمال ولا يرى فى الوجود
قبيحاً. وهؤلاء قد عدت الغيرة لله من قلوبهم والبغض فى الله والمعادة
فيه وانكار المنكر والجهاد فى سبيله وإقامة حدوده! ويرى جمال الصور
من الذكور والاناث من الجمال الذى يحبه الله، فتعبدون بفسقهم وربما
غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر فى تلك الصورة ويحل فيها. وأن
كان اتحادياً قال هى مظهر من مظاهر الحق ويسمىها المظاهر الجمالية.

فصل

أنواع الجمال

وقابلهم الفريق الثانى فقالوا: قد ذم الله سبحانه جمال الصور وتما
القامة والحلقة، فقال عن المنافقين:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (٤)

(٢) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٤) سورة المنافقون: الآية ٤.

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٣) سورة الملك: الآية ٣.

وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا ﴾ (١)،

أى أموالاً ومناظر. قال الحسن: هو الصور. وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك وإنما نفى نظر المحبة. قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا، وقال:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ (٢)،

وفى الحديث: «البذاذة من الإيمان»، وقد ذم الله المسرفين. والسرف كما يكون فى الطعام والشراب يكون فى اللباس.

وفصل النزاع أن يقال: الجمال فى الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يتجمل للوفود. وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ولباس الحرير فى الحرب والخيلاء فيه. فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه. فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة فى سوى ذلك. وأما ما لا يحمد ولا يذم هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك. فيعرف الله سبحانه بالجمال الذى لا يماثله

(١) سورة مريم: الآية ٧٤.

(٢) سورة طه: الآية ١٣١.

فيه شيء ، ويعبد بالجمال الذى يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق . فيحسب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالأخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه فى لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والخبثان وتقليل الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذى هو وصفه، ويعبده بالجمال الذى هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك.

فصل

صدق العزيمة والفعل

ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه فى جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدق فى عزمه وفى فعله، قال تعالى:

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (١)،

فسعادته فى صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم. فإذا صدقت عزميته بقى عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وإلا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله فى جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنى يلتزم من صحة الأخلاق وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله.

(١) سورة محمد: الآية ٢١.

فائدة جليلة القدر

إرادة العبد

رب ذو إرادة أمر عبداً ذا إرادة ، فإن وفقه وأراد من نفسه أن يعينه ويلهمه فعل ما أمر به ، وإن خذله وخلاه وإرادته ونفسه ، وهو من هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه ، فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك . ولذلك ذمه الله في كتابه من هذه الحيثية ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية ، وهو كونه مسلماً ومؤمناً وصابراً ومحسناً وشكوراً وتقياً وبراً ، ونحو ذلك . وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنساناً وإرادته صالحة ، ولكن لا يكفي مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق ، كما أنه لا يكفي في الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها .

فصل

وقار الله

من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره ، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها ، قال تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (١) ،

أى لا تعاملونه معاملة من توقرونه ، والتوقير: العظمة . ومنه قوله تعالى : (وتوقروه) ، قال الحسن : ما لكم لا تعرفون الله حقاً ولا تشكرونه ؟ وقال مجاهد : لا تبالون عظمة ربكم . وقال ابن زيد : لا ترون الله طاعة . وقال ابن عباس : لا تبالون عظمة ربكم . وقال ابن زيد : لا ترون الله طاعة . وقال ابن عباس : لا تعرفون حق عظمته .

(١) سورة نوح : الآية ١٣ .

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظيمته وحدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب. ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وقاره ألا تعدل به شيئاً من خلقه، لا في اللفظ، بحيث تقول: والله وحياتك، ما لى إلا الله وأنت وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا في الخوف والرجاء. ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه ويقول: هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه، ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحد، فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطى المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه ويعطى الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبة من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم. ومن وقار الله أن يستحي من إطلاعه على سره وضميره فيرى فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟! القرآن والعلم وكلام الرسول

صلى الله عليه وسلم صلوات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر وراذع موقظ قائم بك، فلا ما ورد إليك وعظك! ولا ما قام بك نصحك! ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك! فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبتة وعظاً وانزعاجاً، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزعج بالنظر إلى مصابه. فالضرب لم يؤثر فيه زجراً وهو يريد الانزعاج من نظر إلى ضربه.

من سمع بالمشلات والعقوبات والآيات فى حق غيره ليس كمن رآها عياناً فى غيره، فكيف بمن وجدها فى نفسه؟

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ (١)،

فآياته فى الآفاق مسموعة معلومة، وآياته فى النفس مشهودة مرئية، فعياداً بالله من الخذلان. قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٢)،

وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَهُيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٣).

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا ويتمم نقائص خلخته بفضائل أخلاقه وأعماله، فكلما أمتحى (٤) من جثمانه أثر زاد إيمانه أثر، وكلما نقص من قوى بلذنه زاد فى قوة إيمانه ويقينه ورغبته فى الله والدار الآخرة، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد، بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر، فانها

(٢) سورة يونس: الآيات ٩٦-٩٧.

(٤) امتحى: أى ذهب أثره وزال.

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١١.

زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرتة ، وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل
التذكر والاستدراك واغتنام الفرص والتوبة النصوح كما قال تعالى :

﴿ أُولَئِكَ نَعَمَّرُهُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ (١)

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه وتدارك فارطه واغتنام
بقية أنفاسه فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم ، وإلا فلا خير له
فى حياته ، فإن العبد على جناح سفر إما إلى الجنة وإما إلى النار .
فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له فى حصول النعيم
واللذة ، فانه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل ، وإذا
طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة فى ألمه وعذابه ونزولاً له
إلى أسفل . فالمسافر إما صاعد وإما نازل ، وفى الحديث المرفوع :
« خيركم من طال عمره وحسن عمله وشركم من طال عمره وقبح
عمله » (٢) .

فالمطالب الصادق فى طلبه كلما خرب شيء من ذاته جعله عمارة
لقلبه وروحه ، وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة فى آخرته ، وكلما
منع شيئاً من لذات دنياه جعله زيادة فى لذات آخرته ، وكلما ناله هم
أو حزن أو غم جعله فى أفراح آخرته . فتقصان بدنه ودنياه ولذته
وجاهه ورئاسته ان زاد فى حصول ذلك وتوفيره عليه فى معاده ، كان
رحمة به وخيراً له وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة
أو ترك واجب ظاهر أو باطن ، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب
على هذه الأربعة ، وبالله التوفيق .

(١) سورة فاطر: الآية ٣٧ .

(٢) رواه الترمذى والداريمى وابن حنبل .

فائدة

الحياة طريق مسافر

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط رحالهم إلا في الجنة أو النار. والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة ، إنما ذلك بعد انتهاء السفر. ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آتات السفر غير واقفة ، ولا المكلف واقف ، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل ، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير.

فائدة

المشاهدة

عند العارفين أن الاشتغال بالمشاهدة عن البر^(١) في السير في السر وقوف ، لأنه في زمن المشاهدة لو كان صاحب عمل ظاهر أو باطن أو ازدياد من معرفة وإيمان مفصل كان أولى به ، فإن اللطيفة الإنسانية تحشر على صورة عملها ومعرفتها وهمتها وإرادتها ، والبدن يحشر على صورة عمله الحسن أو القبيح. وإذا انتقلت من هذه الدار شاهدت حقيقة ذلك. وعلى قدر قرب قلبك من الله تبعد من الأئس بالناس ومساكنتهم ، وعلى قدر صيانتك لسرك وإرادتك يكون حفظه. وملاك ذلك صحة التوحيد ثم صحة العلم بالطريق ثم صحة الإرادة ثم صحة العمل. والحذر كل الحذر من قصد الناس لك وإقبالهم عليك وأن يعثروا على موضع غرضك ، فإنها الآفة العظمى.

(١) هكذا الأصل ، ولعله تصحيف عن الجدد.

فائدة

مداخل الشيطان

كل ذى لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

إحدهما: التزيد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة وهى حظ الشيطان ومدخله إلى القلب، وطريق (الخلاص منه) الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة. فتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر فى حصن الذكر، فتى غفل فتح باب الحصن فوجه العدو فيعسر عليه أو يصعب اخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء.

فائدة

طريق النجاح

طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة بحيث يكون رأساً فى ذلك مقتدى به فيه، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً حاكماً على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيله، زاهداً فى كل ما سوى مطلوبه، عاشقاً لما توجه إليه، عارفاً بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه، مقدم الهمّة ثابت الجأش لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل، كثير السكون دائم الفكر غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر وراحته التعب، محباً لمكارم الأخلاق، حافظاً لوقته، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذى يلتقط الحب بينهم،

قائماً على نفسه بالرغبة والرغبة ، طامعاً فى نتائج الاختصاص على بنى جنسه ، غير مرسل شيئاً من حواسه عبثاً ولا مسرحاً خواطره فى مراتب الكون . وملاك ذلك هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينه وبين المطلوب ، وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من اطراح الأدب مع الكشف .

فائدة

أفضل الذكر

من الذاكرين من يبتدىء بذكر اللسان وإن كان على غفلة ، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطأ على الذكر . ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدىء على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع فى الذكر بقلبه ، فإذا قوى استتبع لسانه فتواطأ جميعاً . فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه . والثانى ينتقل من قلبه إلى لسانه ، من غير أن يخلو قلبه منه ، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه . فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبى إلى الذكر اللسانى ثم يستغرق فى ذلك حتى يجد كل شىء منه ذاكرة .

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده .

فصل

أنفع الناس وأضرهم

أنفع الناس لك رجل ممكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً أو تصنع إليه معروفاً ، فانه نعم العون لك على منفعتك وكمالك . فانتفاعك به فى الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر . وأضر الناس عليك من ممكن نفسه منك حتى تعصى الله فيه فانه عون لك على مضرتك ونقصك .

فائدة

اللذة المحرمة

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها ثمرة للألم بعد انقضائها ، فإذا اشتدت الداعية منك إليك ففكر في انقطاعها وبقاء قبحها وألمها ثم وازن بين الأمرين وانظر ما بينها من التفاوت .

والتعب بالطاعة ممزوج بالحسن ثمرة اللذة والراحة ، فإذا ثقلت على النفس ففكر في انقطاع تعبها وبقاء حسناتها ولذتها وسرورها ، ووازن بين الأمرين ، وأثر الراجح على المرجوح ، فإن تأملت بالسبب فانظر إلى ما في المسبب من الفرح والسرور واللذة يهن عليك مقاساته ، وإن تأملت بترك اللذة المحرمة فانظر إلى الألم الذي يعقبه ووازن بين الألمين .

وخاصية العقل تحصيل أعظم المنفعتين بتفويت ادناهما واحتمال أصغر الألمين لدفع أعلاهما .

وهذا يحتاج إلى علم بالأسباب ومقتضياتها ، وإلى عقل يختار به الأولى والأنفع له منها ، فن وفر قسمه من العقل والعلم اختار الأفضل وآثره ، ومن نقص حظه منها أو من أحدهما اختار خلافه ، ومن فكر في الدنيا والآخرة علم أنه لا ينال واحداً منها إلا بمشقة فليتحمل المشقة لخيرهما وأبقاهما .

فائدة

في كل عضو أمر ونهى

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر ، وله عليه فيه نهى ، وله فيه نعمة ، وله به منفعة ولذة . فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه وسعى في تكميل انتفاعه

ولذته به ، وان عطل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته .

وله عليه فى كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه ، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه ، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر ، فالعبد لا يزال فى تقدم أو تأخر ولا وقوف فى الطريق البتة . قال تعالى :

﴿ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (١)

فصل

فريقا الجنة والنار

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهى والعطاء والمنع . فافترقوا فرقتين : فرقة قابلت أمره بالترك ونهيه بالارتكاب وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسخط ، وهؤلاء أعداؤه ، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك . وقسم قالوا : إنما نحن عبيدك ، فإن أمرتنا سارعنا إلى الاجابة ، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه ، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك ، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك . فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا ، فإذا مزقه عليهم الموت صاروا إلى النعيم المقيم وقرة الأعين . كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة ، فإذا مزقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم .

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة فى قلبك ، وأردت أن تعلم من أى الفريقين أنت ، فانظر مع من تميل منها ومع من تقاتل إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين ، فأنت مع أحدهما لا محالة . فالفريق الأول استفسشوا الهوى فخالقوه واستنصحو العقل فشاوروه ، وفرغوا قلوبهم للفكر

(١) سورة المدثر: الآية ٣٧ .

فما خلقوا له ، وجوارحهم للعمل بما أمروا به ، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم فى الآخرة ، واستنظروا على سرعة الأجل بالمبادرة إلى الأعمال ، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها ، واستوطنوا الآخرة قبل انتقائهم إليها ، واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليه ، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها ، فعجل لهم سبحانه من نعم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه وأقبل بقلوبهم إليه وجمعها على محبته وشوقهم إلى لقائه ونعمهم بقربه وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن على فوتها والغم من خوف ذهابها ، فاستلنا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، والملأ الأعلى بأرواحهم .

فصل

من صفات التوحيد

التوحيد اللطيف (١) شىء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأدنى شىء يخذشه ويدنسه ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر ، وكالمرأة الصافية جداً أدنى شىء يؤثر فيها . ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية . فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده ، وإلا استحكم وصار طبعاً يتعسر عليه قلعه .

وهذه الآثار والطبوع التى تحصل فيه : منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال ، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال .

ولكن من الناس من يكون توحيده كبيراً عظيماً ، ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ، ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذى يخالطه أدنى

(١) فى الأصل «أصلف» ، وأغلب الظن أنه محرف عن أطف فهو الأصوب .

نجاسة أو وسخ فيغتر به صاحب التوحيد الذى هو دونه ، فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده ، فيظهر من تأثيره فيه ما لم يظهر فى التوحيد الكثير .

وأيضاً فإن المحل الصافى جداً يظهر لصاحبه مما يندسه ما لا يظهر فى المحل الذى لم يبلغ فى الصفاء مبلغه فيتداركه بالازالة دون هذا فانه لا يشعر به .

وأيضاً فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جداً أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة .

وأيضاً فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليسامح بما لا يسامح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيح

وأيضاً فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشى الغريبة إلى مقتضاه وموجبه ، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال المملوحة إلى مقتضاه وموجبه ، كما يشاهد ذلك فى الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغنية إلى طبعها .

فائدة

لا يجمع الله ذخائره فى قلب فيه سواه

ترك الشهوات لله ، وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته ، فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به ، لا تحصل فى قلب فيه غيره ، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم فإن

الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره فى قلب فيه سواه وهمته متعلقة بغيره ،
وإنما يودع ذخائره فى قلب يرى الفقر غنى مع الله ، والغنى فقراً دون
الله ، والعز ذلاًّ دونه ، والذل عزاً معه ، والنعيم عذاباً دونه ، والعذاب
نعيماً معه .

وبالجملة ، فلا يرى الحياة إلا به ومعه ، والموت والألم والهم والغم
والحزن ، إذا لم يكن معه ، فهذا له جنتان : جنة فى الدنيا معجلة ، وجنة
يوم القيامة .

فائدة

الانابة والاعتكاف

الانابة هى عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن فى
المسجد لا يفارقه وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالاجلال
والتعظيم ، وعكوف الجوارح على طاعته بالاخلاص له والمتابعة لرسوله ،
ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال
إمام الحنفاء لقومه :

﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (١) ،

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظ قومه العكوف على
التماثيل ، وكان حظ العكوف على الرب الجليل . والتماثيل جمع تمثال ،
وهى الصور الممثلة . فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه
عكوف منه على التماثيل التى قامت بقلبه ، وهو نظير العكوف على
تماثيل الأصنام ، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم
وهمهم وإرادتهم على تماثيلهم ، فإذا كان فى القلب تماثيل قد ملكته

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥٢ . وعكف يعكف عكوفاً : أقام .

واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها ، فهو نظير عكوف الأصنام عليها ، ولهذا سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبداً لها ودعا عليه بالنعس والنكس (١) ، فقال : «نعس عبد الدينار، نعس عبد الدرهم ، نعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» (٢) .

الناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم ، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على من يسر بالنزول عليه ، وطالب الله والدار والآخرة إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه ، فهذه همته في سفره وفي انقضائه :

﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (٣)

وقالت امرأة فرعون : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ (٤)

فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة ، فإن الجار قبل الدار.

من كلام الشيخ على (٥) :

قيل لى فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم : لا تبد فاقة إلى غيرى فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حذك فى عبوديتك . ابتليتك بالفقر لتصير ذهباً خالصاً فلا تزيفن بعد السبك . حكمت لك بالفقر ولنفسى

(١) النعس : أن يغفل وجهه ، والنكس : أن لا يستقل بعد سقطته حتى يسقط ثانية وهى أشد من الأولى .

(٢) رواه البخارى بكتاب الجهاد ، وابن ماجه فى الزهد .

(٣) سورة الفجر : الآيات ٢٧ - ٣٠ . (٤) سورة التحريم : الآية ١١ .

(٥) ربما قصد الشيخ على بن سهل الأصبهاني ، وهو من قلماء مشايخ أصفهان ، كان يكتب الجنيد ، وهو من أقرانه .

بالغنى ، فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى ، وأن وصلتها بغيرى حسمت
عنك مواد معونتي طرداً لك عن بابى . لا تركز إلى شىء دوننا فإنه
وبال عليك وقاتل لك . إن ركنت إلى العمل رددناه عليك ، وإن
ركنت إلى المعرفة نكرناها عليك ، وإن ركنت إلى الوجد استدرجناك
فيه ، وإن ركنت إلى العلم أوقفناك معه ، وإن ركنت إلى المخلوقين
وكلناك إليهم ، أرضنا لك رباً نرضاك لنا عبداً .

فائدة

الشهقة عند سماع القرآن

الشهقة التى تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب :

أحدها : أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها فتحدث
له الشهقة فهذه شهقة شوق .

وثانيها : أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهى خوفاً وحنناً على نفسه ،
وهذه شهقة خشية .

وثالثها : أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه عنه فيحدث له ذلك
حنناً فيشهى شهقة حزن .

ورابعها : أن يلوح له كمال محبوبه ويرى الطريق إليه مسدودة عنه
فيحدث ذلك شهقة أسف وحزن .

وخامسها : أن يكون قد توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره فذكره
السماع محبوبه ، فلاح له جماله ورأى الباب مفتوحاً والطريق ظاهرة ،
فشهى فرحاً . وسروراً بما لاح له .

وبكل حال : فسبب الشهقة قوة الوارد وضعف المحل عن الاحتمال .
والقوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلاً ولا يظهر عليه ، وذلك أقوى له

وأدوم، فإنه إذا أظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعه. هذا حكم الشهقة من الصادق، فإن الشاهق إما صادق وإما سارق وإما منافق.

قاعدة نافعة

أنواع الفكر

أصل الخير والشر من قبل التفكير، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض. وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها وفي دفع مفسد المعاد وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار. ويلها أربعة: فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء. ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونبيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاها، وهذا الفكر يشمر لصاحبه المحبة والمعرفة. فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخستها وفنائها أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

وهذه الأفكار تعلو همته وتحببها بعد موتها وسفوها وتجعله في واد والناس في واد. وبإزاء هذه الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه ولا أعطى الاحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته، مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه.

ومنها الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر، كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير.

ومنها الفكر فى العلوم التى لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالاً ولا شرفاً، كالفكر فى دقائق المنطق والعلم الرياضى والطبيعى، وأكثر علوم الفلاسفة التى لو بلغ الإنسان غاياتها لم يكمل بذلك ولم يترك نفسه .

ومنها الفكر فى الشهوات واللذات وطرق تحصيلها، وهذا وإن كان للنفس فيه لذة لكن لا عاقبة له ومضرته فى عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته .

ومنها الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كالفكر فيما إذا صار ملكاً أو وجد كنزاً أو ملك ضيعة ماذا يصنع وكيف يتصرف ويأخذ ويعطى وينتقم ونحو ذلك من أفكار السفل .

ومنها الفكر فى جزئيات أحوال الناس وما جرياتهم ومداخلهم ومخارجهم وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلّة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة .

ومنها الفكر فى دقائق الحيل والمكر التى يتوصل إلى أغراضه وهواه مباحة كانت أو محرمة .

ومنها الفكر فى أنواع الشعور وصروفه وأفانينه فى المدح والهجاء والغزل والمرثى ونحوها، فانه يشغل الإنسان عن الفكر فيما فيه سعاده وحياته الدائمة .

ومنها الفكر فى المقدرات الذهنية التى لا وجود لها فى الخارج ولا بالناس حاجة إليها البتة، وذلك موجود فى كل علم حتى فى علم الفقه والأصول والطب، فكل هذه الأفكار مضرته أرجح من منفعتها، ويكفى فى مضرته شغلها عن الفكر فيما هو أولى به وأعود عليه بالنفع عاجلاً وآجلاً .

قاعدة

الطب والصبر

الطب لقاح الإيمان، فإذا اجتمع الإيمان والطب أثمر العمل الصالح. وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه، فإذا اجتمعا أثمر إجابة الدعاء. والخشية لقاح المحبة، فإذا اجتمعا أثمر امتثال الأوامر واجتناب المناهي. والصبر لقاح اليقين، فإذا اجتمعا أوثرا الإمامة في الدين، قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايِنَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١).

وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الاخلاص، فإذا اجتمعا أثمر قبول العمل والاعتداد به. والعمل لقاح العلم، فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يقد شيئا. والحلم لقاح العلم، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع. والعزيمة لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة وبلغت به همته من العلياء كل مكان.

فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة. وحسن القصد لقاح لصحة الذهن، فإذا فقد الخير كله، وإذا اجتمعا أثمر أنواع الخيرات. وصحة الرأي لقاح الشجاعة، فإذا اجتمعا كان النصر والظفر، وإن فقدوا فالخذلان والخيبة، وإن وجد الرأي بلا شجاعة فالجبن والعجز، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي بالتهور والعطب. والصبر لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما. قال الحسن:

(١) سورة السجدة: الآية ٢٤.

إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيت، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيت، فإذا رأيت صابراً بصيراً فذاك.

والنصيحة لقاح العقل، فكلمة قويت النصيحة قوى العقل واستتار. والتذكر والتفكير كل منها لقاح الآخر، إذا اجتمعاً أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. والتقوى لقاح التوكل، فإذا اجتمعاً استقام القلب. ولقاح أخذ أهبة الاستعداد للقاء قصر الأمل، فإذا اجتمعاً فالخير كله في اجتماعهما والشر في فرقتهما. ولقاح الهمة العالية النية الصحيحة فإذا اجتمعاً، بلغ العبد غاية المراد.

قاعدة

موقف العبد بين يدي الله

للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه. فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف. قال تعالى:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا ۖ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝﴾ (١).

فائدة

لذة الآخرة أبقي

اللذة من حيث هي مطلوبة للإنسان بل ولكل حي فلا تنم من جهة كونها لذة، وإنما تنم ويكون تركها خيراً من نيلها وأنفع إذا تضمن

(١) سورة الإنسان: الآيات ٢٦-٢٧.

فوات لذة أعظم منها وأكمل، أو أعقبت ألماً حصوله أعظم من ألم فواتها. فههنا يظهر الفرق بين العاقل والفطن والأحمق الجاهل. فتى عرف العقل التفاوت بين اللذتين والألمين وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر هان عليه ترك أدنى اللذتين لتحصيل أعلاههما، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاههما.

وإذا تقررت هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدوم، ولذة الدنيا أصغر وأقصر، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا، والمعمل فى ذلك على الإيمان واليقين، فإذا قوى اليقين وباشر القلب أثر على الأدنى فى جانب اللذة واحتمل الألم الأسهل على الأصعب، والله المستعان.

فائدة

وأيوب إذ نادى ربه

قوله تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّ مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١)

جمع فى هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد واطهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة فى التعلق له، والاقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه. وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره.

فائدة

أنت وليى فى الدنيا والآخرة

قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال:

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

﴿ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١)،

جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه . وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء .

قاعدة

وإن من شيء إلا عندنا خزائنه

قوله الله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ (٢)،

متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا من عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائنه بيديه . وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه . وقوله :

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ (٣)،

متضمن لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد ان لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فانه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذى انتهت إليه الأمور كلها فانتهدت إلى خلقه ومشيتته وحكمته وعلمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يجب لأجله فحجته عناء وعذاب . وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل . وكل قلب لا يصل إليه فهو شقى محجوب عن سعاده وفلاحه ، فاجتمع ما يراد منه كله فى قوله : (وإن

(٢) سورة الحجر: الآية ٢١ .

(١) سورة يوسف: الآية ١٠١ .

(٣) سورة النجم: الآية ٤٢ .

من شيء إلا عندنا خزائنه)، واجتمع ما يراد له في قوله: (وأن إلى ربك المنتهى)، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

من أسرار التوحيد:

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فراد لغيره. وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد^(١) إليه المنتهى. ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه. ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعاده أبد الآباد.

العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر وباطناً ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له مستكيناً ناظراً إليه بقلبه ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له وأنه عبد محض يجرى عليه سيده أحكامه رضى أو سخط، فإن رضى نال الرضا وإن سخط فحظه السخط، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها.

(١) هذه لغة تميم، فإنهم يطلون عمل «ليس» مع «إلا».

فائدة جلية

محبة الله

لا يزال العبد منقطعا عن الله حتى تتصل ارادته ومحبة بوجهه الأعلى. والمراد بهذا الاتصال أن تقضى المحبة إليه وتتعلق به وحده فلا يحجبها شيء دونه، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل، كما لا يطمس نور المحبة ظلمة الشرك، وأن يتصل ذكره به سبحانه فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة والتفاتة في حال الذكر إلى غير المذكور. فحينئذ يتصل الذكر به ويتصل العمل بأوامره ونواهيه فيفعل الطاعة لأنه أمر بها وأحبها، ويترك المناهى لكونه نهى عنها وأبغضها.

فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه، وحقيقته زوال العلل الباعثة على الفعل والترك من الأغراض والحظوظ العاجلة، ويتصل التوكل والحب به بحيث يصير واثقا به سبحانه مطمئنا إليه راضيا بحسن تدبيره له غير متهم له في حال من الأحوال، ويتصل فقره وفاقه به سبحانه دون من سواه، ويتصل خوفه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده، فلا يخاف غيره ولا يرجوه ولا يفرح به كل الفرح ولا يسره غاية السرور.

وإن ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل والابتهاج والنعيم وقرة العين وسكون القلب إلا به سبحانه، وما سواه إن أعان على هذا المطلوب فرح به وسر به، وإن حجب عنه فهو بالحزن به والوحشة منه واضطراب القلب بمحصله أحق منه بأن يفرح به، فلا فرحة ولا سرور إلا به أو بما أوصل إليه وأعان على مرضاته. وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتها، وأمر بالفرح بفضله ورحمته وهو الاسلام والايمان والقرآن، كما فسره الصحابة والتابعون.

والمقصود أن من اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل ، والا فهو مقطوع عن ربه متصل بحظه ونفسه ملبس عليه فى معرفته وارادته وسلوكه .

قاعدة جلية

النعم كلها من الله

قد فكرت فى هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده ، نعم الطاعات ونعم اللذات ، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك شكرها ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَعُّونَ ﴾ (١)

وقال : ﴿ فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ الْآلَاءَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (٢)

وقال : ﴿ وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣)

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه .

والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه ، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه ، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهاال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه ، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة ، ولا فلاح له إلا بها : الشكر ، وطلب العافية ، والتوبة النصوح .

(١) سورة النحل : الآية ٥٣ . (٢) سورة الأعراف : الآية ٦٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ١١٤ .

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرغبة ، وليس يد العبد بل
بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء ، فإن وفق عبده أقبل بقلبه إليه
وملاؤه رغبة ورهبة ، وإن خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله
ذلك ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

التوفيق والخذلان :

ثم فكرت هل للتوفيق والخذلان سبب أوهما بمجرد المشيئة لا سبب
لها ؟ فإذا سببها أهلية المحل وعدمها ، فهو سبحانه خالق المحال متفاوتة
فى الاستعداد والقبول أعظم تفاوت ، فالجمادات لا تقبل ما يقبله
الحيوان ، وكذلك النوعان كل منهما متفاوت فى القبول . فالحيوان الناطق
يقبل ما لا يقبله البهيمة ، وهو متفاوت فى القبول أعظم تفاوت . وكذلك
الحيوان البهيمة متفاوت فى القبول ، لكن ليس بين النوع الواحد من
التفاوت كما بين النوع الإنسانى .

فإذا كان المحل قابلاً للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها
ويشكر المنعم بها ويثنى عليه بها ويعظمه عليها ، ويعلم أنها من محض
الجود وعين المنة ، من غير أن يكون هو مستحقاً لها ولا هى له ولا به ،
وإنما هى لله وحده وبه وحده . فوحده بنعمته اخلاصاً وصرفها فى محبته
شكراً ، وشهدها من محض جوده منة ، وعرف قصوره وتقصيره فى شكرها
عجزاً وضعفاً وتفريطاً ، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته
وفضله وإحسانه ، وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له .

وكلما زاده من نعمة ازداد ذلاً له وانكساراً وخضوعاً بين يديه وقياماً
يشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها لعدم توفيقه شكرها كما سلب
نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها ، فإن لم يشكر نعمته وقابلها
بضد ما يليق أن يقابل به سلبه إياها ولا بد ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (١)

وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها وأثنوا على المنعم بها وأحبوه وقاموا بشكره، وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٢)

فصل أسباب الخذلان

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لى، وإنما أوتيته لأننى أهله ومستحقه كما قال

تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٣)

أى على علم علمه الله عندى استحق به ذلك واستوجبه واستأهله. قال الفراء: أى على فضل عندى أنى كنت أهله ومستحقا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندى.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل (٤) سليمان بن داود (النبي) فيما أوتى من الملك، ثم قرأ قوله تعالى:

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٣. (٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

(٣) سورة القصص: الآية ٧٨.

(٤) كان من أشرف قريش، وأمّه هند أخت معاوية بن أبى سفيان. عرف بالورع والصلاح. ولاه ابن الزبير البصرة، ولما قامت فتنة ابن الأشعث هرب إلى عمان، وتوفى فيها سنة (٨٤ هـ - ٧٠٣ م).

﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (١)

ولم يقل هذا من كرامتي ، ثم ذكر قارون وقوله :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٢)

يعنى أن سليمان رأى ما أوتيته من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلى به (ف) شكره ، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاق . وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ (٣)

أى أنا أهله وحقيق به ، فاختصاصى به كاختصاص المالك بملكه .

والمؤمن يرى ذلك ملكا لربه وفضلا منه من به على عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها على عبده ، وله إلا يتصدق بها . فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئا هو له يستحقه عليه ، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلا ومستحقا فأعجبه نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها ، فكان حظها منها الفرح والفخر ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَعَوْنَهَا مِنْهُ إِنَّا لَنُفَكِّرُ كُفُورًا *

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّا لَنَفَرِحُ

فَخُورًا ﴾ (٤)

فدمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء . واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء

(٢) سورة القصص: الآية ٧٨ .

(٤) سورة هود: الآية ٩ - ١٠ .

(١) سورة النمل: الآية ٤٠ .

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٠ .

قوله : ذهب السيئات عني ، ولو أنه قال : أذهب الله السيئات عني برحمته ومنه لما ذم على ذلك ، بل كان محمودا عليه ، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر.

فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه ، فان محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (١)

فأخبر سبحانه أن محلمهم غير قابل لنعمته ، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها .

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان مع بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها ، فأسباب الخذلان منها وفيها وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة . فأسباب التوفيق منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه كما خلق أجزاء الأرض ، هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له ، وخلق الشجر ، هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها ، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، والزنبور غير قابل لذلك . وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده ، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده ، وهو الحكيم العليم .

* * *

قال شيخ الإسلام بحر العلوم مفتى الفرق أبو العباس أحمد بن تيمية
رحمه الله (١):

فصل تفسير أول سورة العنكبوت

قال تعالى:

﴿الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَمْنَا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ *
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ *
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ
جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرَجِعِكَ فَانِثُكُم
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي
الصَّالِحِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَمْنَا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ

(١) هو شيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النخعي الحاراني الدمشقي
الحنبلي. أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية. ولد في حران سنة (١٢٦١هـ = ١٢٦٣) ودرس في
دمشق ونبغ في مختلف العلوم الشرعية. ناظر العلماء فكانت آراؤه الإصلاحية سبباً في اعتقاله عدة
مرات في مصر ودمشق. ومات معتقلاً في دمشق سنة (٢٧٨هـ = ١٣٢٨م). وقد ترك مؤلفات
كثيرة ذكر في «فرائد الوفيات» أنها تبلغ ثلاثمائة مجلد

فَتَنَّا النَّاسَ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ
أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١)

وقال الله تعالى لما ذكر المرتد والمكروه بقوله:

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ (٢)

قال بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣)

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنا
واما الا يقول آمنا، بل يستمر على عمل السيئات. فن قال آمنا
امتحنه الرب عز وجل وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق
من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته، فإن
أحدا لن يعجز الله تعالى هذه سنته تعالى يرسل الرسل إلى الخلق
فيكذبهم الناس ويؤذونهم، قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (٤)

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٤

(١) سورة العنكبوت: الآية ١ - ١١

(٤) سورة النحل: الآية ١١٠

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٦

(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٢

وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّونٌ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (٢)

ومن آمن بالرسول وأطاعهم عادوه وآذوه فابتلى بما يؤله ، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل (له) مايؤله أعظم وأدوم ، فلا بد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، والكافر تحصل له النعمة ابتداء ثم يصير فى الألم .

رأى الشافعى فى الابتلاء والتمكن

سأل رجل الشافعى فقال : يا أبا عبد الله ، أيا أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى ؟ فقال الشافعى : لا يمكن حتى يبتلى ، فإن الله ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فلما صبروا مكنتهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة .

من أرضى الله وأسخط الناس

وهذا أصل عظيم فينبغى للعاقل أن يعرفه ، وهذا يحصل لكل أحد فإن الإنسان مدنى بالطبع لا بد له من أن يعيش مع الناس والناس لهم ارادات وتصورات يطلبون منه أن يوافقهم عليها وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة من غيرهم .

ومن اختبر أحواله وأحوال الناس وجد من هذا شيئا كثيرا كقوم يريدون الفواحش والظلم ولهم أقوال باطلة فى الدين أو شرك ، فهم مرتكبون بعض ما ذكره الله من المحرمات فى قوله تعالى :

(٢) سورة فصلت : الآية ٤٣

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٢

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وهم فى مكان مشترك كدار جامعة أو خان أوقيسيرية أو مدرسة أو رباط
أو قرية أو درب أو مدينة فيها غيرهم ، وهم لا يتمكنون مما يريدون إلا
بموافقة أولئك ، أو بسكوتهم عن الإنكار عليهم ، فيطلبون من أولئك الموافقة
أو السكوت ، فان وافقوهم أو سكوتوا سلموا من شرهم فى الابتلاء ، ثم
قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان
أولئك يخافونه ابتداء كمن يطلب منه شهادة الزور أو الكلام فى الدين
بالباطل ، إما فى الخبر وإما فى الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم ،
فإن لم يجيبهم آذوه وعادوه ، وإن أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه
فيهينونه ويؤذونه أضعاف ما كان يخافه وألا عذب بغيرهم .

فالواجب ما فى حديث عائشة الذى بعثت به إلى معاوية ، ويروى
موقوفاً ومرفوعاً : «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة
الناس» (٢) ، وفى لفظ «رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن
أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» ، وفى لفظ «عاد
حامده من الناس ذاماً» .

وهذا يجرى فيمن يعين الملوك والرؤساء على أغراضهم الفاسدة ،
وفيمن يعين أهل البدع المنتسبين إلى العلم والدين على بدعهم . فمن
هداه الله وأرشده امتنع من فعل المحرم وصبر على أذاهم وعداوتهم ، ثم
تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة كما جرى للرسول وأتباعهم مع من

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٣

(٢) راجع الترمذى باب (الزهد)

آذاهم وعاداهم، مثل المهاجرين في هذه الأمة ومن ابتلى من علمائها
وعبادها وتجارها وولاتها.

لابد من الابتلاء

وقد يجوز في بعض الأمور اظهار الموافقة واطمان المخالفة كما لمكره على
الكفر، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع، إذ المقصود هنا : أنه لابد
من الابتلاء بما يؤذى الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة، ولهذا
ذكر الله تعالى في غير موضع أنه لابد أن يبتلى الناس، والابتلاء يكون
بالسراء والضراء، ولابد أن يبتلى الانسان بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج
إلى أن يكون صابرا شكورا، قال تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَبْلُوهُمْ إِنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِبَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا
يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤)

هذا في آل عمران. وقد قال قبل ذلك في البقرة، فإن البقرة نزل
أكثرها قبل آل عمران :

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٦٨

(١) سورة الكهف : الآية ٧

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٤٣

(٣) سورة طه : الآية ١٢٣ - ١٢٤

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُونَ
الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا
إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١)

وذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء، كالذهب الذي لا يخلص جوده من رديئه حتى يفتن في كير الامتحان إذ كانت النفس جاهلة ظالمة وهى منشأ كل شر يحصل للعبد، فلا يحصل له شر إلا منها، قال تعالى:

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ لِمَ أُنذِرُكُم بِهَا إِنِّي هَذَا قُلْ
هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٣)

وقال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ
كَثِيرٍ ﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٥) ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا
لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ (٦)

(٢) سورة النساء: الآية ٧٩

(٤) سورة الشورى: الآية ٣٠

(٦) سورة الرعد: الآية ١١

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٥

(٥) سورة الأنفال: الآية ٥٣

وقد ذكر عقوبات الأمم من آدم إلى آخر وقت ، وفي كل ذلك يقول إنهم ظلموا أنفسهم فهم الظالمون لا المظلومون ، وأول من اعترف بذلك أبوهم ، قال :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١)

وقال لإبليس : ﴿ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢)

وإبليس إنما اتبعه الغواية منهم كما قال :

﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا

عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ

الْغَاوِينَ ﴾ (٤)

والغنى اتباع هوى النفس ، وما زال السلف معترفين بذلك كقول أبي بكر وعمر وابن مسعود : أقول فيها برأى فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه .

وفى الحديث الألهى حديث أبى ذر الذى يرويه الرسول عن ربه عز وجل : « يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٥) .

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٣ . (٢) سورة ص : الآية ٨٥ .

(٣) سورة الحجر : الآيات ٣٩ - ٤٠ . (٤) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه ، باللفظ النالى : عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمه فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى =

سيد الاستغفار:

وفى الحديث الصحيح، حديث «سيد الاستغفار، أن يقول العبد: اللهم انك ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي، فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقناً بها فأت من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فأت من ليلته دخل الجنة» (١).

وفى حديث أبى بكر الصديق من طريق أبى هريرة وعبد الله بن عمرو: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه ما يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعتك».

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته: «الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا». وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إنى آخذ بحجزكم عن النار

أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيا لكم ثم أوفىكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

(١) رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن حنبل بألفاظ مختلفة.

وأنتم تتهافون تهافت الفراش»^(١)، شبههم بالفراش لجهله وخفة حركته، وهى صغيرة النفس، فإنها جاهلة سريعة الحركة.

وفى الحديث: «مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة». وفى حديث آخر: «للقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً». ومعلوم سرعة حركة الريشة والقدر مع الجهل، ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه: إنه استخفه. قال عن فرعون: «انه استخف قومه فأطاعوه». وقال تعالى:

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾^(٢)

فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت، يقال: أيقن إذا كان مستقراً، واليقين: استقرار الإيمان فى القلب علماً وعملاً، فقد يكون علم العبد جيداً لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش.

أصل الغضب:

قال الحسن البصرى^(٣): إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيت، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيت، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك. قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾^(٤)

(١): رواه أحمد بلفظ مختلف ٤٥٤/٦. (٢) سورة الروم: الآية ٦٠.

(٣) هو الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد، من التابعين، ولد سنة (٢١هـ = ٦٤٢م) فى المدينة المنورة، ثم سكن البصرة فكان إمامها، وهو من العلماء الفقهاء الفصحاء. كان بأمر الولاية وبنهاهم، ولا يخاف فى الحق لومة لائم. قال فيه الغزالي: كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء وأقربهم هدياً من الصحابة، وكان غاية فى الفصاحة تنصب الحكمة من فيه. توفى بالبصرة سنة (١١٠هـ = ٧٢٨م).

(٤) سورة السجدة: الآية ٢٤.

ولهذا تشبه النفس بالنار فى سرعة حركتها وإفسادها وغضبها، وشهوتها من النار والشيطان من النار.

وفى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الغضب من الشيطان والشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» (١). وفى الحديث الآخر: «الغضب جمة توقد فى جوف ابن آدم»، ألا ترى إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام. وفى الحديث المتفق على صحته: «الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم» (٢).

وفى الصحيحين: «أن رجلين استبا عند النبى صلى الله عليه وسلم وقد اشتد غضب أحدهما، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» (٣)، وقد قال تعالى:

﴿ اذْفَعْ بِالنَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ فَلَمَّا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ * وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
وقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤)،

(١) رواه أحمد فى مسنده، ٢٢٦/٤.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأحكام/ ٢١ ويده الملق/ ١١، واعتكاف/ ١٢، ١١، ورواه أبو داود فى كتاب الصوم/ ٧٨، أدب/ ٨١، ورواه ابن ماجه فى كتاب الصيام/ ٦٥، والدارمى فى رقاى/ ٦٦، وأحمد فى الباب/ ٣ الحديث ١٥٦ / ٢٨٥ / ٣٠٩.

(٣) رواه أحمد ٢٤٠/٥.

(٤) سورة فصلت: الآيات ٣٤-٣٦.

(٥) سورة الأعراف: الآيات ١٩٩ - ٢٠٠.

وقال تعالى: ﴿ اَدْفَعْ بِاَلَّتِي هِيَ اَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ اَعْلَمُ بِمَا يَصْنُفُونَ ﴾ *
وَقُلْ رَبِّ اَعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَاَعُوْذُ بِكَ رَبَّ اَنْ
يَحْضُرُونِ ﴿ ١ ﴾

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٩٦-٩٨.

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
شروط الانتفاع بالقرآن	٧
— القلب الحى	٨
● المبدأ والمعاد وصفات التوحيد جمعت فى سورة (ق)	١٠
— المعاد للجسد ذاته	١١
— شبه المتكرين للمعاد	١٢
— براهين المعاد	١٢
معنى العيى	١٥
— كتابة الأعمال والقيامتين	١٧
— القرين وخصومته	١٩
— صفات أهل الجنة	٢٢
● مغفرة أهل بدر	٢٥
● تفسير آية «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا»	٢٨
● الفاتحة وما تضمنته	٢٩
● طريقان لمعرفة الله	٣١
● حديث يزيل الهم والغم	٣٣
— العبودية	٣٥
— الحكم والقضاء	٣٦
— أقوال الطوائف فى القدر والعدل	٣٧

الموضوع	الصفحة
— التوسل بأسمائه تعالى	٤٠
● العرش والقلب	٤١
● محتوى خطاب القرآن	٤٣
● المحلل لا يقبل ضدين	٤٤
● تفسير سورة التكاثر	٤٥
حكم بالغات	٤٦
— مشاهد المقدور المكروه	٤٨
— نتائج المعصية	٤٩
● إنصاف الله	٤٩
● الغيرة نوعان	٥٠
● حكم متفرقة	٥٢
● سلمان الفارسي	٥٣
— عبر وعظات	٥٦
● عبر وحكم	٥٩
● الدنيا خداعة	٦٢
● أعجب العجائب	٦٣
● مصدر الحرام	٦٤
● فوائد وحكم	٦٤
لا حول ولا قوة إلا بالله	٧١
— التوحيد يدفع الشدائد	٧٢
● المحبة تتبع المعرفة	٧٢
حيسان مفيدان	٧٣
— التقوى	٧٣
● حسن الخلق من التقوى	٧٤

الموضوع	الصفحة
● عبر وعظات	٧٥
تأثير لا إله إلا الله عند الموت	٧٦
— مادام الأجل باقياً كان الرزق آتياً	٧٧
— أبواب النار وأصول الخطايا	٧٨
— حكمة الله في أجزاء الإنسان	٧٩
● اتقوا الله وأجلوا في الطلب	٨٠
● المأثم والمغرم	٨١
● الجهاد	٨١
● عداوة العقل والهوى	٨٢
— مراتب العلوم	٨٣
— علماء السوء	٨٤
● انتصار الرسول	٨٤
● غرور الأمانى	٨٦
● لماذا جعل آدم آخر المخلوقات	٨٨
— حال إبليس مع آدم	٨٩
● فوائد مختلفة	٩١
● تجليات الرب	٩٥
● فضائل أبى بكر	٩٧
حكم متفرقة	١٠١
عبر وعظات	١٠٢
— وكان الكافر على ربه ظهيراً	١٠٨
— والذين إذا ذكروا بآيات ربهم	١٠٩
— أصول المعاصى	١١٠
● أنواع هجر القرآن والخرج منه	١١٢

الموضوع	الصفحة
● كمال النفس	١١٣
● ثواب الانشغال بالله	١١٤
● أقسام العلوم	١١٥
● ظاهر الإيمان وباطنه	١١٧
● التوكل على الله	١١٧
● شكوى الجاهل	١١٩
● يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول	١٢٠
— وجعلنا له نوراً	١٢٣
— الله يحول بين المرء وقلبه	١٢٣
● كتب عليكم القتال	١٢٤
— لو عرف العبد الحقيقة	١٢٦
● الزهد في الدنيا	١٢٨
● أساس الخير	١٣٣
— قسوة القلب وصفائه	١٣٤
— حكم متفرقة	١٣٥
● العالم الذي لا يعمل بعلمه	١٣٧
● العابدين الجاهل والعالم الفاجر	١٤٠
● أفضل ما تكتسبه النفوس	١٤٢
● علوم ضاره	١٤٣
● الإيمان والاختلاف فيه	١٤٥
● أصول السعادة	١٤٧
● أهل الهدى وأهل الضلال	١٤٨
— تفضيل	١٥٠
● عشرة لا ينتفع بها	١٥٣

الموضوع	الصفحة
● حق العبودية	١٥٣
● حلاوة التوكل على الله	١٥٣
— المشاقة والمحادة	١٥٧
كيف تصلح حالك	١٥٨
● علامة صحة الإرادة	١٥٩
● الزهد في الدنيا	١٦٠
● أقسام الزهد	١٦٠
● مخالفة الأمر الأعظم من عمل المنهى عنه	١٦١
● الذكر والشكر	١٧٤
● الهداية تجر الهداية والضلال يجبر الضلال	١٧٦
— مراتب الهداية	١٧٧
الهدى قرين الرحمة والضلال قرين الشقاء	١٨١
العطاء والمنع	١٨٦
● العاقل لا يتعلق بالعالم السفلى	١٨٦
● مفسد الكذب	١٨٦
● وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم	١٨٨
● شروط السعادة بالعلم	١٩٠
● مساوىء الشهوات	١٩١
● حدود الأخلاق	١٩٢
— خير الأمور الوسط	١٩٤
● التقوى فى القلوب	١٩٤
أكمل الهدى	١٩٥
● أصل الأخلاق الممدوحة والمذمومة	١٩٧
● مستلزمات المطالب العليا	١٩٨

الموضوع	الصفحة
• من حكم ابن مسعود	١٩٩
• الإخلاص وحب الثناء لا يجتمعان	٢٠٥
• اللذة حسب المهمة	٢٠٦
• — آثار ترك المعاصي	٢٠٨
• ورع عمر بن عبد العزيز	٢٠٩
• فوائد هجر العوائد	٢١٠
• العوائق	٢١١
• والعلائق	٢١٢
• منزلة الرسول (ص)	٢١٢
• علامات السعادة والشقاوة	٢١٢
• الأعمال بنيان أساسه الإيمان	٢١٤
• أركان الكفر	٢١٦
• صفات الجهال بالله	٢١٨
• مكر الله عز وجل	٢٢٣
• شجرة الإخلاص	٢٢٥
• مراتب السعادة	٢٢٦
• الجسد والروح	٢٣٠
• ترك الذنوب أولاً	٢٣١
• ثلاث فوائد	٢٣٢
• معرفة الله	٢٣٢
• أفضل الكسب وشره	٢٣٣
• مواساة المؤمنين	٢٣٤
• الجهل يوجب التعب	٢٣٤
• الرحلة إلى الله وما يعترضها	٢٣٥

الموضوع	الصفحة
• أنواع النعم	٢٣٦
• مبدأ كل علم وعمل	٢٣٦
• — الخطرات والوساوس	٢٣٧
• القلب لا يخلو من الأفكار	٢٣٨
• — شرف النفس	٢٤١
• لا يعرف خالقه من لا يعرف نفسه	٢٤٢
• مراتب معرفة الله	٢٤٥
• إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم	٢٤٥
• جمال الله عز وجل	٢٤٦
• الله جميل يحب الجمال	٢٤٩
• أنواع الجمال	٢٥١
• صدق العزيمة والفعل	٢٥٣
• إرادة العبد	٢٥٤
• وقار الله	٢٥٤
• الحياة طريق مسافر	٢٥٨
• المشاهدة	٢٥٨
• مداخل الشيطان	٢٥٩
• طريق النجاح	٢٥٩
• أفضل الذكر	٢٦٠
• أنفع الناس وأضرهم	٢٦٠
• اللذة المحرمة	٢٦١
• في كل عضو أمر ونهى	٢٦١
• فريقا الجنة والنار	٢٦٢
• من صفات التوحيد	٢٦٣

الموضوع	الصفحة
● لا يجمع الله ذخائره في قلب فيه سواء	٢٦٤
● الإنابة والاعتكاف	٢٦٥
من كلام الشيخ على	٢٦٦
● الشهقة عند سماع القرآن	٢٦٧
أنواع الفكر	٢٦٨
الطلب والصبر	٢٧٠
موقف العبد بين يدي الله	٢٧١
● لذة الآخرة أبقى	٢٧١
● وأيوب إذ نادى ربه	٢٧٢
● أنت وليي في الدنيا والآخرة	٢٧٢
وإن من شيء إلا عندنا خزائنه	٢٧٣
من أسرار التوحيد	٢٧٤
● محبة الله	٢٧٥
النعم كلها من الله	٢٧٦
— التوفيق والخذلان	٢٧٧
● أسباب الخذلان	٢٧٨
● تفسير أول سورة العنكبوت	٢٨١
— رأى الشافعي في الابتلاء والتمكن	٢٨٣
— من أرضى الله وأسخط الناس	٢٨٣
— لا بد من الابتلاء	٢٨٥
— سيد الإستغفار	٢٨٨
— أصل الغضب	٢٨٩

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
٨٧/٥٨٦٨

مطابع مؤسسة أخبار اليوم
القاهرة

مطابع مؤسسة أفبار اليوم
القاهرة